الإمام أبو حامد الغزالي

اسرار المخلوقات



منشورات دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة/تونس

ترجمة المؤلف

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ، أبو حامد ، حجة الاسلام ، الفيلسوف المتصوف ، أحد أعظم أعلام الفكر الاسلامي، ومن كبار أئمة أهل البحث والنظر في علوم الدنيا والدين .

ولد في الطابران (قصبة طوس ، بخراسان) سنة 450 هـ (1058 م) . وكان والده رجلا فقيرا صالحا ، يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس . ويحب مجالسة الفقهاء والمتصوفة . وكان حينما يجلس اليهم يتأثر بأقوالهم ويتضرع الى الله أن يرزقه ولدا صالحا مثلهم ، ويجعله فقيها واعظا . وقبل ان يتوفى الغزالي الوالد ، أوصى به وبأخيه أحمد الى صديق له متصوف، وزوده بما لديه من مال لينفقه عليهما ، قائلا :

« إن لي لتأسفا عظيما على عدم تعلم الخط ، واشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين » .

وأشرف عليهما الوصي المتصوف ، وعلمهما الخط ، وأدبهما الى أن نفذ المال ، وكان الوصي فقيرا أيضا ، فنصح الأخوين بأن يدخلا مدرسة يأكلان فيها ويأويان ، ثم يتعلمان في أثناء ذلك ، ففعلا . فكان هذا الصوفي الصالح السبب في سعادتهما وعلو درجتهما . وكثيرا ما كان أبو حامد يحكي هذا ويقول : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون (العلم) إلا لله » .

ثابر أبو حامد على دراسة الفقه وهو ما يزال في ريعان الصبا ، فقد أخذ طرفا منه في طوس (سنة 465 هـ ـ 1073 م) على الامام أحمد بن محمد الراذكاني (نسبة الى راذكان من قرى طوس) ، ثم انتقل الى جرجان ، وهو دون العشرين ، ودرس على الامام أبي القاسم اسماعيل بن مسعدة الاسماعيلي . ثم عاد الى طوس ، فمكث بها ثلاث سنين ، ارتحل بعدها الى نيسابور (سنة 473 هـ) ولازم إمام الحرمين ، عبد الملك الجويني ، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي ، ودرس عليه الفقه والأصول ، والجدل والمنطق ، والكلام والفلسفة ، حتى « أحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد على مبطليهم وإبطال دعاويهم » .

ويرى المؤرخون ان هذه الفترة من حياة الغزالي كانت أخصب فترات حياته ، ففيها ابتدأ بالتأليف والكتابة ، وفيها بدأت الشكوك تتطرق الى علمه . يقول الدكتور كريم عزقول : « كما أنه بدأ في هذه الحقبة لا قبلها، كما أرى ، يعتمد التفكير الشخصي والنظر الحر . وان ما يبرر اعتقادي هذا ، الذي أشارك فيه المستشرق الهولندي « دي بور » فهو أن إمام الحرمين المنتمي الى الأشعرية ، كان يعتمد في اثبات القضايا التي كان يدرسها ، التفكير الشخصي والأدلة العقلية ، أكثر مما كان يعتمد التقليد والادلة النقلية ، ويتعاطى علوما مشبوهة في نظر المتكلمين، كالفلسفة.

ومما لا شك فيه ان تتلمذ الغزالي على إمام الحرمين ، كان له تأثير كبير على تطوره الروحي ، فقد كان الجويني من كبار أئمة أهل العلم في عصره ، نظارا ، أصوليا ، متكلما ، جريئا في نقده ، « سلك طريق البحث والنظر والتحقيق ، بحيث أربى على كثير من المتقدمين ، وأنسى تصرفات الأولين » . « ومن قاس طريقته بطريقة المتقدمين في الفروع وأنصف ، أقر

بعلو منصبه ، ووفور تعبه ونصبه في الدين » . وبهذا الصدد يقول الدكتور كريم عزقول : « وقد رأينا الغزالي ، قبل تتلمذه على الجويني يحفظ غيبا ما يتعلمه . فلا يمكن والحالة هذه ، أن يكون اعترى فكره ذلك الانقلاب الا أبان دراسته على هذا الامام ، أو بعدها بقليل . وفي هذا نلمس التأثير الكبير الذي كان لامام الحرمين ، على تطور الغزالي، ولا شك ان الغزالي كان يشعر بخير هذا التأثير ، اذ لم يفصله عن استاذه ، رغم موقف هذا منه غير المشجع، الا موت الامام سنة 1085 م ، ولم يدرس على استاذ غيره فيما بعد »

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام 478 هـ ـ 1085 م) خرج الغزالي الى المعسكر ، بلاط الوزير نظام الملك (وزير السلطان ملكشاه السلجوقي) في ظاهر نيسابور ، وكان مجلسه مجلس أهل العلم ومحط رحالهم ، فناظر الغزالي الأئمة العلماء في مجلسه ، وظهر كلامه عليهم ، فأعجب نظام الملك بالغزالي وبمقدرته في المناظرة . وكان ذلك سببا في اقباله عليه ، وتعيينه أستاذا في المدرسة النظامية في بغداد سنة 484 هـ ـ 1091 م ، وكان حينئذ في الرابعة والثلاثين من عمره .

وسرعان ما اشتهر الغزالي في بغداد ، فقد « غلبت حشمته الامراء والملوك والوزراء » على ما في « الطبقات الكبرى » للسبكي، و « صار بعد إمامة خراسان إمام العراق » على حد تعبير عبد الغفار بن اسماعيل الفارسي .

ولكن الغزالي ، رغم هذه الشهرة ، لم يمتع بمقامه في بغداد مدة طويلة . لقد كان في تعطش الى درك حقائق الأمور من أول أمره وريعان عمره ،وكان البحث وراء الحقيقة غريزة وفطرة وضعتا في جبلته . وفي هذه الحقبة من حياته في نظامية بغداد ، بدأت تظهر ثمار دراسته على

شيخه إمام الحرمين ، فانصرف الى المطالعة والبحث والاستقصاء ، بعقلية جريئة ناقدة ، لاعتاق فكره من رابطة التقليد التي كانت لا تزال مستحكمة فيه ، حتى بلغ درجة الشك فيما يرى ويسمع ويقرأ ، وفيما يقول ويعتقد .

وقد بلغت شكوك الغزالي درجة جعلته يفكر بالتخلي عن التدريس، وبمغادرة بغداد . وكان ، اذ ذاك ، منغمسا في المال والجاه والشهرة ، وبدأ الصراع في نفسه بين «شهوات الدنيا» من جانب ، وبين « دواعي الآخرة» من جانب آخر ، ولم يستقر رأيه على رفض شهوات الدنيا الا بعد تردد ، ومجاهدات نفسية عنيفة . ويصف الغزالي حاله فيقول : « فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . في هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ قفل الله على لساني حتى أعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحدا تطييبا لقلوب المختلفة (الآتين لسماع الدروس) وكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب بطل معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب ، فكان لا تنساغ لي شربة ولا تنهضم لي لقمة . وتعدى ذلك الى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج » . ثم يقول : « ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر اذا دعاه ، وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه ، والمال ، والأولاد ، والأصحاب .

ونصح بعض الأطباء الغزالي بالسياحة ، فخرج من بغداد في ذي القعدة من سنة 488 هـ (نوفمبر 1095) قاصدا الحج الى بيت الله الحرام ، ووصل دمشق في مطلع سنة 489 هـ . وخلال عشرة أعوام ، أخذ

يتنقل من دمشق الى القدس الى الخليل الى القاهرة ، ومن القاهرة الى الاسكندرية . وكان يقضي أوقاته في الخلوة والرياضة والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى . وكان يزور المساجد ويأوي الى القفار ، وينزوي في المغارات ، ويتعرض لأنواع المشاق والمحن . ثم سار الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، وزيارة الرسول (صلعم) .

ورجع الغزالي الى بغداد ، ولكنه استمر في اعتزاله التدريس . وفي ذي الحجة من سنة 499 هـ (سبتمبر (أيلول) 1106 م) أقنعه الوزير فخر الملك بالتدريس في نظامية نيسابور ، ولكنه لم يلبث طويلا ، فبعد سنة ، أو نحو من ذلك ، قُتِلَ الوزير فخر الملك ، فغادر الغزالي نيسابور الى طوس ، ملازما بيته ، مشتغلا بالتفكير والوعظ والتدريس ، واستمر الى أن مات سنة 505 هـ (1111 م) عن سن بلغت به الخامسة والخمسين . قال أخوه أحمد : « لما كان يوم الاثنين وقت الصبح ، توضأ أخي أبو حامد ، وصلى ، وقال : علي بالكفن ، فأخذه وقبّله ووضعه على عينيه وقال : سمعا وطاعة للدخول على الملك ، ثم مدّ رجليه ، واستقبل القبلة ومات » .

ألف الغزالي أكثر من مائتي كتاب ، عدّ منها الدكتوران جميل صليبا وكامل عيّاد 228 كتابا ، عدا الكتب المشكوك في صحة نسبتها اليه . كما عدّ الزبيدي منها ما يقرب من ثمانين كتابا ورسالة . والسبكي ما يقرب من ستين كتابا .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه الذي جعل نعمته في رياض جنان المقربين، وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين، وجعل التفكر في مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين في قلوب عباده المستبصرين، استدلوا عليه سبحانه بصنعته فعلموه، وتحققوا أن لا إله إلا هو فوحدوه، وشاهدوا عظمته وجلاله فنزهوه، فهو القيم بالقسط في جميع الأحوال، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال، فعلموا أنه الحليم القادر العليم، كما قال في كتابه الكريم، شهد اللّه أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين وشفيع المذنبين محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وشرف وكرم إلى يوم الدين.

(أما بعد) يا أخي وفقك اللّه توفيق العارفين، وجمع لك خير الدنيا والدين، أنه لما كان الطريق إلى معرفة اللّه سبحانه والتعظيم له النظر في مخلوقاته والتفكير في عجائب مصنوعاته، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين، وفيه تفاوت درجات المتقين، وضعت هذا الكتاب منبها لعقول أرباب الألباب، بتعريف وجوه من الحكم والنعم التي يشير إليها معظم آي الكتاب، فإن اللّه

تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحي وأمر أربابها بالنظر في مخلوقـاتـه، والتفكير والاعتبار بها أودعه من العجائب في مصنوعاته، لقوله سبحانه :

(قل انظروا ماذا في السموات والأرض) (1)

وقوله :

(وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) (2)

إلى غير ذلـك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي بفهمها والترقي في اختلاف معانيها تعظم المعرفة باللّه سبحانه التي هي سبب السعادة، والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة، وقد بوبته أبوابا يشتمل كل باب على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من الخلق وذلك حسب ما تنبهت له عقولنا فيما أشرنا إليه مع أنه لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ما خلق اللّه سبحانه وتعالى وما وضع من الحكم في مخلوق واحـد من مخلوقـاته لعجزوا عن ذلك وما أدركته الخلائق من ذلك ما وهب اللّه سبحانه لكل منهم وما سبق له من ربه سبحانه واللّه المسؤول أن ينفعنا به برحمته وجوده .

---

1) يونس 101

2) الانبياء 30

باب التفكر في خلق السماء وفي هذا العالم

قال اللّه تعالى :

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) [3]

وقال تعالى سبحانه :

(اللّه خلق سبع سموات) (4)

اعلم رحمك اللّه أنك إذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط والنجوم منصوبة كالمصابيح والجواهر مخزونة كالذخائر (5) وكل شيء من ذلك معد مهيأ لشأنه .

والانسان كالمالك (6) للبيت المخول لما فيه فضروب النبات لمآربه وأصناف الحيوانات في مصالحه فخلق سبحانه السماء وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها

---

3) ق 6

4) الطلاق 12

5) مفردها ذخيرة وهي ما يعتز به الانسان ويذخره لمهم الأمور

6) اشارة إلى تسخير الأشياء للانسان واستخلافه فيها

ولـو كانت أشعّة أو أنوارا لأضرت الناظر إليها فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار وتجد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيما وراحة لاسيما إذا انفطرت (7) نجومها وظهر نور قمرها.

والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة وما يجد الناظر إليه به راحة وانشراحا لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكرره مله وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والانشراح بخلاف النظر إلى السماء وزينتها فإن الناظر إليها من الملوك فمن دونهم إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجؤون إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء.

وقـد قالت الحكماء بحذوك عندك من الراحة والنعيم في دارك بمقدار ما عندك فيها من السماء (8)

---

7) انفطرت : تمايزت

8) ان المسلمين مطالبون شرعا بالتفكير في خلق السموات والأرض وهذا التفكير يخرج صاحبه من دنيا الأجساد إلى عظمة القدرة في علوم التشييد والاتقان والتي عندما ينظر إليها لا يرى فيها صدوع ولا شقوق. وان هذه الدقة وهذا الاتقان علامة وضعها الخالق سبحانه على طريق البشرية لتكـون نبراسـا لهم في اتقان أعمالهم مهما صغرت. ولقد قال المبرت اينشتين صاحب (نظرية النسبية) (ان اعظم خاطره يمكن أن تجيش بها النفس البشرية. لهى تلك التي يستشعـرهـا الانسـان عند

وفيها أنها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها وبحركتها تسير الكواكب فيهتدي بها أهل الآفاق وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق ولا توجد مجرة ولا مقبلة صورة نور وقيل أنها أنجم صغار متكافئة مجتمعة يهتدي بها على السير من ضلّ وتحير في أي جهة كان فيقصدها وقيل إنّها المشار إليها في قوله تعالى :

(**والسماء ذات الحبك**(8أ)) قيل الحبك الطرق وقيل ذات الزينة .

فهي دلائـل واضحـة تدل على فاعلهـا وصنعـة محكمـة صمدية تدل على سعة علم باريها وأمور ترتيبها كل يدل على ارادة منشيها فسبحان القادر العالم المريد .

وقيل في النـظر إلى السماء عشر فوائد تنقص الهم وتقلل الـوسـواس وتزيل وهم الخوف وتذكر باللّه وتنشر في القلب التعـظيم للّه وتـزيل الفكر الردية وتنفع من مرض السوداء وتسلى المشتاق وتؤنس المحبيـن وهي قبلة دعاء الداعين .

الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والاظلام . ان الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته حي ميت . انه الخفاء الذي لا نستطيع أن نشق حجبـه . والاظلام الذي لا نستطيع ان نطلع فجره . ومع ذلك فنـحن ندرك أن وراءه حكمـــة احكم ما تكـــون وجمالا أجمـــل ما يكون)تفسير الآيات الكونية / عبد اللّه شحاته / الاعتصام 266

8أ) الذرايات 7

(باب في حكمة الشمس)

قال اللّه سبحانه :

(**وجعل الشمس سراجا**) (9)

إعلم أن اللّه سبحانه خلق الشمس (10) لأمور لا يستكمل علمها إلا اللّه وحده فالذي ظهر من حكمته فيها أن جعل حركاتها لاقامة الليل والنهار في جميع أقاليم الأرض.

ولولا ذلك لبطل أمر الدين أو لولاه كيف كان يكون الناس يسعـون في معـايشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة

---

9) نوح 16
السراج نوره من ذاته. والضياء ما أضاء لك. وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي ترى في قوس السحاب فهو سبعة أضواء. وقد كشف ترقى العلوم الفلكية عن ذلك وكان الناس يجهلونه في عصر التنزيل (المصدر السابق)

10) هذه الشمس ما هي إلا نجم يسبح في ملكوت جبار السموات والأرض. يقـول الشهيد سيد قطب في الـظلال (السموات والأرض خلق عجيب هائـل. دقيق. هذه الأرض التي نعيش عليها ويشاركنا ملايين من الأجنـاس والأنواع. ثم لا تبلغ من حجمها شيئا. وهذه الشمس هي واحـدة من مائة مليون في المجرة الواحدة. وفي الكون مجرات كثيرة وبين المجرة والمجرة التي تليها نحو خمسين مائة ألف سنة ضوئية (السنـــة الضـوئية تقـدر بعشرين مليون مليون من الأميال) الظلال حـ 23

عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته ولولا ضياء نورها ما انتفع بالابصار ولم تظهر الألوان .

وتأمل غروبها وغيبتها عمن طلعت عليهم وما في ذلك من الحكمة ولولاه لم يكن للخلق هدو وراحة أبدانهم وخمود حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة (11) لهضم طعامهم وتفنيد الغذاء ثم كان الحرص يحلهم، على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته في أبدانهم .

فان أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ما هدوا ولا قروا من حرصهم على نيل ما ينتفعون به .

ثم كانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها (12) من الحيوانات والنباتات فهي

---

11) لعله يشير إلى الطاقة الحرارية التي تنبعث من الشمس فتؤثر في الكائنات .

12) ان قوة الاحراق التي تمتلكها الشمس تثير في النفس عظمة الاتقان الالهي . وان في قوة حرارتها لتذكره لمن كان له قلب بيوم التناد . . يوم زفرات جهنم أعاذنا اللّه منها . قوة الاحراق التي تمتلكها الشمس تبلغ درجة حرارته ستة آلاف درجة مئوية للسطح الخارجي بينما تتزايد في اتجاه مركزها إلى حوالي عشرين مليون درجة مئوية . والشمس تشع أضواءها في الفضاء بقوة تعادل خمسمائة وثمانين ألف مليون مليون قوة حصان في الثانية الواحدة .

بطلوعها في وقت وغروبها في وقت النور بمنزلة سراج لأهل بيت يستضاء به وقتا ويغيب وقتا ليهدوا ويقروا وهي في حرها بمنـزلة النار يطبخ بها قهل الدار، حتى إذا كمل طبيخهم واستغنوا عنها أخذها من جاورهم وهو يحتاج إليها فينتفع بها حتى إذا قضي حاجته سلمها لآخرين .

فهي أبـدا منصرفـة في منـافع أهل الأرض يتضاد النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظافرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه وإلى هذه القضية الاشارة بقوله :

(قل أرأيتم أن جعـل اللّه عليكم اللّيل سرمدا إلى يوم القيامة (13))

ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول فيستقيم أمر النبات والحيوان . . ثم انظر إلى سيرها (14) في فلكها في مدة سنة وهي تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها لها بتقدير خالقها .

---

13) القصص 71

14) كان مفكرو العصر القديم يعتقدون أن الشمس ثابتة وان الكون يدور حولهـا . ومن هؤلاء الفيثـاغورثيون . ثم جاء مفكرو العصر الحديث ليعلنوا أن الشمس كوكب غير ثابت . . وتلك النتيجة أعلن عنها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا (والشمس تجري لمستقر لها)

فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف اللّيل والنهار ولما عرفت المواقيت ولو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق فانظر كيف جعل الليل سكنا ولباسا والنهار معاشا وانظر إلى ايلاجه الليل في النهار والنهار في اللّيل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص.

وانظر إلى امالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء فإذا انخفضت من وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت وسط السماء القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان فيستقيم بذلك أمر النبات والحيوان باقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة.

وأما ما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات فيتولد فيها مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد أبدان الحيوان وتقوى أفعال الطبيعة وفي الربيع تتحرك الطبائع في المواد المتولدة في الشتاء فيطلع النبات باذن اللّه وينور الشجر وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل وفي الصيف يخمر الهواء فينضج الثمار وينحل فضول الأبدان ويجف وجه الأرض فتهيأ لما يصلح لذلك من الأعمال وفي الخريف يصفو الهواء فترتفع الأمراض ويمتد اللّيل فيعمل فيه بعض الأعمال وتحسن فيه الزراعة وكل ذلك يأتى على

تدريج وبقـدر حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة إلى غير ذلك مما يطول لو ذكر.

فهذا مما يدلك على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه. ثم تفكر في تنقل الشمس في هذه البروج (15) لاقامة دور السنة وهذا الدور هو الذي يجمع الازمنة الأربعة الشتاء والصيف والربيع والخريف وتسير فيها على التمام وفي القدر من دوران الشمس تدرك الغـلات والثـمار وتنتهي غاياتها ثم تعـود فتستأنف وقت السير وبمسيرتها تكمل السنة ويقوم حساب السنة على الصحة على التاريخ بتقدير الحكيم العليم.

تأمل اشراف الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى فإنها لو بزغت في موضع واحد لها لا تعدوه لما وصل شعاعها إلا إلى جهة واحدة (16) وخلت عنها جميع الجهات فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول

---

15) البروج هي مجموعة النجوم المعروفة بالدلو، الحوت، الحمل، الثـور، الجـوزاء، الأسـد، السرطـان، العذراء، الميزان، العقرب، القوس، الجدي.
وقال مجاهد وقتادة: البروج هنا هي النجوم والكواكب. ومنهم من قال هي منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها في مدارها والرأي الأخير هو الذي يعتقد به المؤلف.

16) اشارة إلى حركة الأرض حول الشمس ثم حركة المجرة كاملة

النهار من المشرق فيعم شروقها ما يقابلها من جهة المغرب ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد أخرى حتى تنتهى إلى الغرب على ما استتر عنها أول النهار فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها.

ثم انظر إلى مقدار الليل والنهار كيف وقتها سبحانه على ما فيه صلاح العالم فصار بمقدار لو تجاوزه لأضر بكل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر ما دام يجد ضوء النهار وكانت البهائم لا تمسك عن الرعي فيؤول أمرها إلى تلفها وأما النبات فتدوم عليها حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق وكذلك الليل لو امتد مقداره أيضا لكان معيقا لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف كالذي يحدث على النبات إذا كان الموضع لا تقع الشمس عليه.

(باب في خلقة القمر والكواكب)

قال اللّه سبحانه وتعالى :

(تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) *

اعلم وفقك اللّه أن اللّه سبحانه وتعالى لما جعل اللّيل لبرد الهواء وهدو الحيوان وسكونه فلم يجعله سبحانه ظلمة داجية لا ضياء فيها البتة فكان لا يمكن أن يعمل عملا فيه وربما احتاج الناس إلى بعض أعمالهم في اللّيل أمّا لضرورة أو لضيق وقت عليهم من النهار وقد يقع ذلك لشدة حرارة أو لغيره من الأسباب.

فكان ضوء القمر في اللّيل من جملة ما تحتاج إليه في المعونة على ذلك فجعل طلوعه في بعض اللّيالي (17) ونقص نوره عن نور الشمس وحرها لئلا ينشط الناس في العمل نشاطهم لكل ما به يتمتعون من الهدو والقرار فيضر ذلك بهم وجعل في الكواكب جزءا من النور يستعان به إذا لم يكن ضوء القمر.

---

* الفرقان 61، 62

17) معروف أن ضوء القمر انعكاس لضوء الشمس

وجعل في الكواكب زينة السماء وأنسا وانشراحا لأهل الأرض فانظر ما ألطف هذا التدبير جعلت للظلمة دولة ومدة للحاجة إليها وجعل خلالها شيء من النور ليكمل به ما احتيج إليه.

ثم في القمر علم الشهور والسنين وهو صلاح ونعمة من الله ثم في النجوم مآرب أخرى فإن فيها دلائل وعلامات على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال كالزراعة والغراسة (18) والاهتداء بها في السفر في البّر والبحر وأشياء مما تحدث من الأنواء والحر والبرد وبها يهتدي السيارون في ظلمة اللّيل وتقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة كما قال تعالى :

(وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) (19) مع ما في ترددها في السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من البهجة والنضارة وفي تصريف (20) القمر خاصة

---

18) الزراعة للنباتات ذات المحاصيل الدورية كالقمح وغيره أما الغراسة فللأشجار.

19) الأنعام 97

20) ان عملية تصريف القمر تلك هي اختلاف مناظره بالنسبة لأهل الأرض جاء في ميزان تفسير القرآن نقلا عن تفسير الآيات الكونية فلأن نوره مكتسب من الشمس تستنير بها نصف كرته تقريبا، وما يقرب من النصف الآخر الذي لا يقابل الشمس مظلم. ثم يتغير موضع =

في استهـلاكه ومحاقه وزيادته ونقصانه واستنارته وكسوفه كل ذلـك دلالات على قدرة خالقهـا المصرف لها هذا التصرف لاصلاح العالم.

ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب في كل يوم وليلة دورانا سريعا وسيرها معاوم مشاهد غانا نشاهدها طالعة وغاربة (21) ولـولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في أربعة وعشرين ساعـة فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها حتى خفى عنـا شدة مسـيرها في فلكها لكانت تختطف بتوهجها

= الاستنارة نتيجة الدوران. ومن هنا يظهر لأهل الأرض في صورة هلال ثم عندما ينبسط عليه النور يتبدر ثم لا يزال ينقص (نتيجة الدوران والانحرافات الثلاثة. انحراف الأرض عن الشمس والقمر: وانحراف القمر عن الشمس) ثم يعود إلى ما كان عليه أوله.

(تفسير الآيات الكونية 255)

21) النجوم الطالعة والغاربة والتي يمكن مشاهدتها بالعين المجردة لا تزيد عن ثلاثة آلاف نجم من أية بقعة على الأرض وفي أي وقت. بينما يمكن مشاهدة أكثر من تسعة آلاف نجم على مدار السنة فوق سطح الأرض كلهـا (وتختلف النجـوم في أحجامها وفي ألوانها وفي درجات حرارتها ويعتقد العلماء أن النجوم التي في السماء تختلف اختلافا كبيرا في أعمارها وأنها تمر بدورة تشبه دورة الحياة على الأرض. فهي تبدأ نجوما زرقاء حارة ثم تصير بيضاء فصفراء ثم تصير في آخر الأمر نجوما باردة حمراء والنجوم كلها تتحرك في الفضاء الكوني في اتجاهات ثابتة محددة.

(تفسير الآيات الكونية ص 279).

لسرعة حركاتها كالذي يحدث أحيانا من البروق إذا توالت في الجـو فانظر لطف الباري سبحانه في تقدير سيرها في البعد البعيد (22) لكي لا يحدث من سيرها حادث لا يحتمل فهي مقدرة في جميع الأحوال على قدر الحاجة.

وانـظر في هذه التي تظهـر في بعض السنـة وتحتجب في بعضها مثل الثريا والجوزاء والشعري فإنها لو كانت كلها تظهر في وقت واحـد لم يكن لشيء منهـا دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها فكان في طلوع بعضها في وقت دون الآخر ما يدل عى ما ينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحها ولذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب من المصلحة فإنها بمنزلة الاعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر فإنها لا تغيب لضرب من المصلحة فإنها بمنزلة الاعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر فإنها لا تغيب ولا تتوارى.

ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقـلات المتنقلة منهـا ومصيرها في كل واحد من البروج كما

---

22) اقـرب النجوم إلى الأرض يبعد 4،4 سنة ضوئية بينما يبعد عنا النجم القطبي بمسافة 400 سنة ضوئية ويبلغ أبعد النجوم التي يمكن مشاهدتها بالعين المجردة بنحو مليون سنة ضوئية. المصدر السابق.

يستدل على أشياء تحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر في منازلهما ولو كانت منتقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لأنه انما يعرف مسير المتنقلة منها بتنقلها في البروج الدانية كما يعرف سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتازها فقد صار هذا الفلك شمسه وقمره وبروجه تدور على هذا العالم دورانا دائما (23) في الفصول الأربعة من السنة لصلاح ما فيه من حيوان ونبات وغير ذلك بتقدير العزيز العليم.

ومن عظيم الحكمة خلق الافلاك التي بها ثبات هذا العالم على نهاية من الاتقان لطول البقاء وعدم التغير فقد كفى الناس التغير في هذا الأمر الجليل الذي ليس قدرة ولا حيلة

---

23) تتتابع الفصول الأربعة نتيجة دوران الكواكب حول الشمس وكذا دوران الشمس حول نفسها. وتختلف سرعة الكواكب باختلاف مسافتها حول الشمس. بمعنى أن الكوكب يكون في أقصى سرعة له عندما يكون قريبا من الشمس وتقل بالتدريج بابتعاده عنها. وحركة الكواكب يحكمها توازن محكم بين قوتين متضاربتين هما قوة جذب الشمس والقوة الناشئة عن دوران الكوكب. وهذا التعادل هو الذي يمكن الكواكب من أن تبقى في افلاكها ثابتة. ويتعاقب الليل والنهار على هذه الكواكب في مدد متفاوتة حسب حجمها وسرعة دورانها كل منها حول محورها وعلى كوكب الأرض بسبب هذا الدوران تتتابع فصول السنة عليها نتيجة لميل محور الأرض في دورانها حول الشمس. المصدر السابق.

في اصلاحه لو نزل به تغير يوجب ذلك التغير أمرا في الأرض إذ قوام الأرض (24) مرتبط بالسماء فالأمر في جميع ذلك ماض على قدرة الباري سبحانه ولا يختل ولا يعتل ولا يتخلف منه شيء عن ميقاته بصلاح العالم فسبحانه العليم القدير.

---

24) ان كوكب الأرض المسخر للدوران في الفضاء هو كرة من الصخر يبلغ متوسط قطرها 12٫740 كيلو متر ومتوسط محيطها 40٫042 كيلومتر ومساحة سطحها 710 مليون كيلو ويحيى على الأرض وفي مياهها وتحت هوائها 41 مليون نوع من أنواع الحياة النباتية ونحو مليون نوع من أنواع الحياة الحيوانية.

باب في حكمة خلق الأرض

قال تعالى :

(والأرض فرشناها فنعم الماهدون) (25)

ثم انظر كيف جعل اللّه الأرض مهادا ليستقرعليها الحيوان فإنه لا بد له من مستقر ولا غناء له عن قوت فجميع الأرض محل للنبات لقوته ومسكن يكنه من الحر والبرد ومدفن فيه ما تؤذي رائحته والجيف والأقذار من اجسام بني آدم وغيرها كما قال سبحانه :

(ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا) (26)

قيل في تفسير هذه الآية هذا القول وغيره ثم ذلل طرقها لتنتقل فيها الخلق لطلب مآربهم فهي موضوعة لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان والحرث والنبات وجعل فيها الاستقرار والثبات كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله :

(أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم) (27)

فأمكن الخلائق بهذا التصرف فيها في مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوهم والانتقال لأعمالهم فإنها لو كانت

---

25) الذاريات 48   26) المرسلات 25، 26   27) النازعات 31، 32، 33.

رجراجة متحركة لم يستطعوا أن يتقنوا شيئا من النبات وجميع الصناعات وكانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج بهم من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل ترهيبا للخلق وتخويفا لهم لعلهم يتقون اللّه وينزعون عن الظلم والعصيان، فهذا أيضا من الحكمة البالغة ثم أن الأرض طبعها اللّه باردة يابسة بقدر مخصوص أرأيت لو أفرط اليبس عليها حتى تكون بجملتها حجرا صلدا لما كانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوانات ولا كان يمكن فيها حرث ولا بناء فجعلها لينة لتهيأ لهذه الأعمال.

ومن الحكمة في خلقها ووضعها أن جعل مهب الشمال أرفع من الجنوب لينحدر الماء على وجه الأرض فيسقيها ويرويها ثم يصير إلى البحر في آخر الأمر فأشبه ذلك ما إذا رفع أحد جانبي السطح وخفض الآخر لينحدر الماء عنه (28) ولولا ذلك لبقي الماء مستبحرا على وجه الأرض فيمتنع الناس من أعمالهم وتنقطع الطرق والمسالك بسبب ذلك.

انظر إلى ما خلق اللّه فيها من المعادن وما يخرج منها من أنواع الجواهر المختلفة في منافعها وألوانها من الذهب والفضة والياقوت والزمرد والبسنفش وأشياء كثيرة من هذه الأحجار

---

28) إن انحدار الماء على سطح الأرض ناشىء عن عدم استواء سطحها، فوجدت بالضرورة انبعاجات في القشرة الأرضية كوّنت القارات وكذلك انخفاضات شكلت قيعان البحار والمحيطات.

الشفافة المختلفة في ألوانها وأنواع أخر مما يصلح لعمال والجمال كالحديد والنحاس والقزدير والرصاص والكبريت والزرنيخ والتوتيا والرخام والجبس والنفط وأنواع لو عددت لطال ذكرها وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم فهذه نعم يسرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار.

ثم انظر إلى ارادة ايجادته من عمارتها وانتفاع العباد بها لجعلها هشة (29) سهلة بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال فلو يبست كذلك لتعذّرت فإن الحرث لا يستقيم إلا مع رخاوة الأرض لزراعة الأقوات والثمر وإلا لا يتعدى إذا صلبت الماء إلى الحب مع أن الحب لا يمكن دفنه إلا بعد أن تلين الأرض بالنداوة ويأخذ الورق وهي ضعيفة في ابتدائها في الأرض التربة ويمكن إذّاك عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء فيخلق اللّه سبحانه عند ذلك العروق ملتبسة بالثرى حتى يقف الشجر والنبات على ساقه وجعل ما يخلق من العروق يوازن ما يخلق من الفروع.

---

29) إن حكمة جعل القشرة الأرضية هشة حكمة بالغة فان تركيب الأرض المعقد كما يقول ـ موريس بوكاي ـ (لأنها متكونة من طبقة عميقة تسودها درجة حرارة عالية تنصهر فيها الصخور وهي الطبقة التي تحيط بمركز باطن الأرض ومن هذه المنطقة تخرج البراكين) وطبقة سطحية (وهي القشرة الأرضية) وهذه الطبقة باردة ورقيقة فسمكها يتراوح بين خمس وعشرة كيلو مترات) وهذه القشرة هي التي يتخلل منها الماء الى جذور النباتات ويبحث الانسان فيها ليقيم عمارة حياته.

ومن رحمته في لينها أن ييسر للناس حفر الأبار في المواضع المحتاجة إلى ذلك إذ لو حفرت في الجبال لصعب الأمر وشق .

(وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها) (30).

وقال تعالى : **(وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون)** (30 أ))

ومن ذلـك ما يستعين به العباد من ترابها ولينها في البناء وعمل اللّبن وأواني الفخار وغير ذلك والمواضع التي بنيت فيها الملح والشب والبـورق والكـبريت وأكثرها تربة رخوة وأيضا أجناس من النبات لا توجد إلا في التراب والرمل دون الأرض المجبلة .

ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة حفرها فيتخذون فيها مسارب وبيوتا يأوون إليها ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكر فقد امتن سبحانه على سليمان عليه السلام بذلك فقال (وأرسلنـا له عين القـطر) أي سهلنا له الانتفاع بالنحاس وأطلعناه على معدنه وقال امتنانا على عباده :

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) (30 ب)

---

30) الملك 15 .

30 أ) الحديد 25 .

30 ب)الأنبياء 31 .

والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه :

(وأنــزل لكــم من الأنعــام) (30ج) أي خلق وألهمهم استخـراج ما فيهـا من ذهب وفضة وغير ذلك لمنافعهم وما يحتـاجـون إليه في معـاشهم وفي اتخاذ أوانيهم وفي ضبط ما يحتاجون إلى ضبطه وتقويته واتخاذ أنواع من الحجارة النفيسة لتبقى فيها كالزجاج ويتخذون منها أواني لحفظ ما يجعل فيها من الأموال النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الاحتياج إليها إذ لا غنى لهم عنها.

وكـذلـك يستخـرج من المعـادن الاكحال مثل (لدهبخ والمفيعما) والسادن والتوتيا وغير ذلك من أصناف ينتفعون بها فسبحان المنعم الكريم.

ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال قال اللّه تعالى :

(والجبال أرساها متاعا لكم) *

وقال تعالى :

(وجعل فيها رواسي أن تميد بكم) (31)

---

30 ج) الزمر 39 .

* النازعات 32 .

31) فصلت 10 ، وهذه الآيات الكريمة دليل قرآني على حركة الأرض ودورانها إذ لا يحيد إلا المتحرك غالبا.

وقال سبحانه :

(وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض) (32)

فقد خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع متعددة لا يحيط بجميعها إلا اللّه ، فمن ذلك أن اللّه تعالى أنزل من السماء المياه ليحيي بها العباد فلو كانت الأرض عارية عن الجبال لحكم عليها الهواء وحر الشمس مع رخاوة الأرض فكانوا لا يجدون المياه إلا بعد حفر وتعب ومشقة فجعل سبحانه الجبال لتستقر في بطونها المياه وتخرج أولا فأول فتكون منها عيون وأنهار وبحار يرتوي بها العباد (33) في أيام القيظ إلى أوان نزول غيث السماء .

ومن الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه فجعل الثلج محفوظا على ظاهرها إلى أن يحله حر الشمس فيكون منه انهار وسواق ينتفع بها إلى أوان نزول الغيث أيضا .

---

32) المؤمنون 18 .

33) إن علاقة الماء بالأرض وعلاقة الاثنين بالانسان علاقة لا انفصام لها يقول بوكاي ـ ان القرآن يبرز ميزة ثراء الأرض بالماء . تلك الميزة الفريدة في النظام الشمسي على حسب أحسن معطيات المعارف الحديثة ثبوتا فلولا الماء لكانت الأرض كوكبا ميتا مثل القمر ـ والقرآن يعطي الأهمية الأولى في ذكر الظاهرات الطبيعية للأرض ودورة الماء موصوفة فيه بدقة محكمة .

ومنها ما يكون فيه برك يستقر فيها الماء فيؤخذ منها وينتفع به كما ينتفع به من الأجباب (34) ومن منافع الجبال ما ينبت فيهـا من أنواع الأشجار والعقاقير التي لا توجد الا فيها وما ينبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن وفيها الشعارى التي لا يوجد ما يعظم من الأخشـاب الا فيها وكذلك العقاقير اكثرها لا يوجد الا بها وفيهـا وهذا ينبت مزارع للانعام ومزارع لبنى آدم ومساكن للوحوش ومواضع لاجناح النحل.

ومن منافع الجبال ما يتخذه العباد من مساكن تقيهم الحر والبرد ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى وقد ذكر اللّه ذلك فقال :

(وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) *

ومن فوائدها أن جعلت أعلاما يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض ويستدل بها المسافرون في البحار على المـين (35) والسـواحـل، ومن فوائدها أن الفئة القليلة الضعيفـة الخائفة من عدوان من لا تطيقه تتخذ ما يحصنها ويؤمنها ويمنعها ممن تخافه فتطمئن لذلك وانظر كيف خلق

---

34) مفردها جب بضم الجيم وهو البئر.

*) الحجر 21 .

35) لعله جمع ميناء.

اللّه فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير مخصوص ولم يجعل ذلك ميسرا في الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته كما جعل هذه السعة في المياه وما ذلك إلاّ لما سبق في علمه لخلائقه مما هو الأصلح كما أشار إلى ذلك بقوله

(وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) *

فسبحان العليم الحكيم.

---

* الحجر 82.

(باب في حكمة خلق البحر)

قال اللّه تبارك وتعالى :

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) (36)

الآية إعلم رحمك اللّه أنه سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها فجعلها مكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطعة من الأرض المستورة بالبحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى أن جميع المكشوف من البراري والجبال عن الماء بالاضافة إلى الماء كربوة صغيرة في بحر عظيم .

فاعلم أن ما يخلق في الأرض من الحيوانات بالاضافة إلى ما خلق في البحر كاضافة الأرض إلى البحر وقد شاهدت فيها عجائب ما هو مكشوف منها فتأمل عجائب البحر فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما نشاهده على وجه الأرض كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما إذا أبدت ظهورها على وجه البحر ظن من يراها أنها حشاف أو جبال أو جزائر وما من صنف من أصناف حيوان البر من انسان وطائر وفرس وبقر وغير ذلك إلا وفي البحر أمثالها في البر وكل منها قد دبره الباري

---

36) النحل 14

سبحانه وخلق فيه ما يحتاجه ويصلحه ولو استقصى ذكر ما يحتويه بعضه لاحتاج إلى وضع مجلدات.

ثم انظر كيف خلق اللّه اللؤلؤ مدورا في صدف تحت الماء (37) وأثبت المرجان في جنح صخور في البحر فقال سبحانه :

(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) *

وذلك في معرض الامتنان وقيل المرجان المذكور في القرآن هو الرقيق من اللؤلؤ ثم قال :

(فبأي آلاء ربكما تكذبان) *

وآلاؤه تفضله ونعمه ثم انظر ما يقذفه من العنبر (38) وغيره من المنفوع ثم انظر إلى عجائب السفن وكيف مسكها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال وتحصيل ما لهم من الأغراض جعلها من آياته ونعمته فقال :

(والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) *

---

37) افراز بعض الحيوانات الرخوية كالمحار يدافع به عن نفسه ضد الأجسام الغريبة التي تغزو جسمه.

* الرحمن 22 .

* الرحمن 13 .

38) قيل العنبر افراز بعض الكائنات البحرية ولعله التمساح.

* البقرة 164 .

فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل أثقالهم وينتقلون بها من أقاليم إلى أقاليم لا يمكن وصولهم إليها إلا بالسفن ولو راموا التوصل بغيرها لأدى إلى أعظم المشقات وعجزوا عن نقل ما ينقل من المنقولات إلى ما بعد من البلاد والجهات.

فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلطف بعباده ويهون ذلك عليهم خلق الأخشاب (39) متخلخلة الأجزاء بالهواء ليحملها الماء ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها ما تحمل به الأثقال وألهم العباد اتخاذها سفنا ثم أرسل الرياح بمقادير في أوقات تسوق السفن وتسيرها من موضع إلى موضع آخر ثم ألهم أربابها معرفة أوقات هبوبها وفترتها حتى يسيروا بالرياح التي تحمل شراعها.

ونظر إلى ما يسره سبحانه في خلقه الماء إذ هو جسم لطيف رقيق سيال متصل الأجزاء كأنه واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطع حتى كأنه منفصل مسخّر للتصرف (40) قابل

39) يقصد بالأخشاب وسائل النقل البحري.

40) إن نظرة واحدة على كمية المياه المتجمدة على القطبين تجعلنا طويلا في تأمل عميق ترى لو قدر لهذ الماء المتجمد أن يسيل فما هي النتيجة. بالقطع سيكون ارتفاع منسوب الماء في البحر والمحيطات الأمر الذي يترتب عليه اغراق مساحات كبيرة وإغراق ما عليها ـ ولقد رأينا ما ينتج عن فيضانات الهند مثلا الناتجة عن الأمطار. فكيف يكون الوضع إذا سال الماء المسخر لله والمتجمد على القطبين.

للاتصال والانفصال حتى يمكن سير السفن فيه فالعجب ممن يغفل عن نعمة اللّه في هذا كله وفي بعضه متسع للفكر.

وكل ذلك شواهد متظاهرة ودلائل متضافرة وآيات ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته قائلة أما ترى تصويري وتركيبي وصفائي زمنا واختلاف حالي وكثرة فوائدي أيظن ذو لب سليم وعلق رصين أني تكونت بنفسي أو ابدعني أحد من جنسي بل ذلك صنع القادر القهار العزيز الجبار.

باب في حكمة خلق الماء

قال اللّه تبارك وتعالى :

(وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) (41)

وقال عز شأنه :

(أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع اللّه بل هم قوم يعدلون) *

انظر وفقك اللّه إلى ما من به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذي به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو اضطر الانسان إلى شربة منه ومنع منها لهان عليه أن يبذل فيها ما يمكنه من خزائن الدنيا (42)

---

41) الانبياء 30

* النمل 60

42) ان تحكم الانسان في إنزال ماء المطر يرفضه العلم الحديث ـ يقول موريس بوكاي ـ لا يمكن أبدا اسقاط المطر من سحابة لا تحتوي على سمات السحابة القابلة للهطول أو من سحابة لم تصل إلى درجة مناسبة من التطور (النضج) . . . كذلك لا يستطيع الانسان أن يعجل بعملية الهطول . . . ان الحكم في المطر والطقس الجميل ما زال حتى اليوم حلما . . دراسة الكتب المقدسة 203.=

والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة وانظر مع شدة الحاجة إليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها ولو جعلها بقدر لضاق الأمر فيها وعظم الحرج على كل من سكن الدنيا .

ثم انظر لطافة الماء وقته حتى ينزل من الأرض ويخلخل أجزاءها فتغذّى عروق الشجر ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالي الشجر والنباتات وهو من طبعه الهبوط (43) ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربه لاماعة الأغذية في أجواف الحيوان ليتصرف الغذاء إلى موضعه جعل لشاربه في شربه لذة عند الحاجة إليه وقبولا له ويجد شاربه فيه نعيما وراحة وجعل مزيلا للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب وغيره وبالماء يبل التراب فيصلح للبناء والأعمال وبه يرطب كل يابس مما لا يمكن استعماله يابسا وبه ترفق الأشربة فيسوغ شربها وبه تطفأ عادية النار إذ وقدت فيها فلا تلتهب فيه وأشرف الناس منها عليها يكرهون وبه تزول الغصة إذا أشرف

= فعلميا الانسان إذا دفع كل ما يمتلك نظير اسقاط الماء فالنتيجة المنطقية هي الخسارة. ولأن الماء عنصر ثمين في الكون . . كان على المسلمين صلاة الاستسقاء إذا منع المطر. أي الاتجاه نحو القوة الوحيدة التي تملك الماء .

43) أي أن الماء يسير إلى النبات ضد حركة الجاذبية الأرضية .

صاحبها على الموت وبه يغتسل التعب الكال (44) فيجد الراحة لوقته.

وبه تستقيم المطبوخات وجميع الأشياء التي لا تستعمل ولا تصلح إلا رطبة إلى غير ذلك من مآرب العباد التي لا غنى عنها فانظر في عموم هذه النعمة وسهولة تناولها عن قدرها مع شدة الحاجة إليها فلو ضاقت لتكدرت الحياة في الدنيا فعلم بهذا أن اللّه تبارك وتعالى أراد بانزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان ونبات ومعدن إلى غير ذلك من المنافع التي يقصر عنها الوصف لمن يروم حصرها فسبحان المتفضل العظيم.

44) المجهد.

باب الحكمة في خلق الهواء

قال اللّه تعالى :

(وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) (45)

اعلم رحملك اللّه أن الهواء في خلقه تتخلحله الرياح ولو لا ذلك لهلك جميع حيوان البر وباستنشاقه تعتدل الحرارة في أجسام جميع الحيوانات لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر (46) فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه انصرفت الحرارة التي فيها إلى قلبها فكان هلاكا بسبب ذلك ثم انظر إلى الحكمة في سوق السحاب به فيقطع المطر بانتقال السحاب إلى موضع يحتاج إلى المطر فيها للزراعة فلو لا لطف الباري يخلق الرياح لثقلت السحائب وبقيت راكدة في اماكنها وامتنع انتفاع الأرض بها (47).

---

45) الحجر 22 ، لا تقدرون على تخزينه إذا أراد اللّه أن يذهبه .

46) يستنشق حيوان البحر الأكسجين الذائب في الماء فليس له غنى عن الهواء تماما مثل الكائنات البرية . .

47) بل بدون الرياح يمتنع تكون السحاب أصلا لأن الرياح تحمل بخار الماء الذي يتكثف في طبقات الجو العليا فيتكون السحاب .

ثم انظر عنها كيف تسير السفن بها وتنتقل بحدوثها وهبوبها فتحمل فيها من أقاليم إلى أقاليم مما لا يخلق تلك الأشياء فيها فينتفع أهلها بها فلو لا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الأشياء إلا بموضعها التي خلقت فيها خاصة ولعسر نقلها بالدواب إلى غيرها من الأقاليم وللعباد ضرورات تدعو إلى ما ينقل إليهم مما ليس بخلق عندهم ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يحملها ويعلم فوائدها.

ثم انظر إلى ما في الهواء من اللطافة والحركة يتخلل اجزاء العالم فينقى بحركته عفن الأرض فلولاه لعفنت المساكن وهلك الحيوان بالوباء والعلل (48)

ثم انظر إلى ما يحصل منه من النفع في نقل السوافي والرمال إلى البساتين وتقوية أشجارها بما ينتقل إليها من التراب بسبب حركة الهواء وتستر وجوه جبال بالسوافي فيمكن الزراعة فيه وما فصل إلى السواحل مما ينتفع الناس بسببه وكل ذلك بحركة البحر (49) بالهواء فيقذف البحر العنبر وغيره مما ينتفع به العباد في أمورهم.

---

48) لولا الهواء لهلكت الكائنات بالاختناق.

49) تحرك الرياح البحر فلا يترسب الملح في قاعه فتموت الكائنات وتفسد الحياة.

ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء فيقع على الأرض قطرات فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل إنصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع أنهارا وبحارا على وجه الأرض من غير تضرر ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه.

فانظر إلى أثر رحمة اللّه فسبحان اللّطيف بخلقه المدبر لملكه ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها وشمول هذه النعمة وجليل قدرها كما نبه العقول عليها بقوله تعالى:

(هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كلّ الثمرات أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) *

ثم من باب النعمة وعظيم الحكمة أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم فلو دام واحد منها عليه لكان فسادا.

ألا ترى أن الأمطار إذا توالت وكثرت عفنت البقول والخضروات وهدمت المساكن والبيوت وقطعت السبل ومنعت من الأسفار وكثير من الحرف والصناعات ولو دام الصحو

---

* النحل 10 ، 11

لجفت الأبدان والنبات وعفن الماء في العيون والأودية فأضر ذلك بالعباد وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضررا آخر من الأمـراض وغلت بسببه الأسعار من الأقوات وبطل المرعى وتعذر على النحل ما يجده من الرطوبة التي يرعاها على الأزهار وإذا تعاقبا على العالم اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما ضرر الآخـر فصلحت الأشياء واستقـامت وهـذا هو الغالب من مشيئة اللّه. فإن قيل قد يقع من أحدهما ضرر في بعض الأوقات.

قلنا قد يكون ذلك لتنبيه الانسان بتضاد الأشياء على نعمة اللّه تعالى وفضله ورحمته أنه هو الغالب فيحصل لهم بذلك انـزجـار عن الظلم والعصيان ألا ترى أنّ من سقم جسمه احتـاج إلى ما يلائمه من الأدوية البشعة الكريهة ليصلح ما فسد منه قال اللّه تعالى :

(ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) *

---

* الشورى 27

باب في حكمة خلق النار

قال اللّه تعالى :

(أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم) (50)

اعلم وفقنا الله وإياك أن الله خلق النار وهي من أعظم النعم على عباده ولما علم الله سبحانه وتعالى ان كثرتها وبثها في العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة (51) حتى إذا احتيج إليها وجدت واستعملت في كل أمر يحتاج إليها فيه فهي مخزونة (52) في الأجسام ومنافعها كثيرة لا تحصى فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج

---

50) الواقعة 71 إلى 74

51) ان اللّه جل وعلا جعل النار مخزونة وجعل خزائنها فوق الانسان وتحت اقدامه. فأما التي فوقه فالطاقة الحرارية الهائلة للشمس والتي لا يصل للانسان منها إلا بقدر حاجته واستمراره في الحياة وأما التي تحت أقدامه فباطن الأرض حيث تنصهر الحجارة ويذوب الحديد. ولهذا كان الانسان من فوقه إلى أسفله محصورا لآية من آيات اللّه.

52) قال تعالى في سورة يس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون.

ولا تركيب ولا اختلاط ولا صحة هضم لمن يستعملها في أكل وشرب فآنظر لطف الباري سبحانه في هذا الأمر المهم.

ثم انـظر فيما يحتاج النـاس إليه من الـذهب والفضـة والنحاس والحديد والرصاص والقزدير وغير ذلك فلولاها لم يكن شيء من الانتفاع من هذه الأشياء فيها يذاب النحاس فتعمل منه الأواني وغيرها وقد نبه اللّه تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر فقال تعالى :

(اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور) *

وبها يلين الحديد فيعملون به أنواعا من المنافع والآلات للحروب مثل الدروع والسيوف إلى غير ذلك مما يطول تعداده وقد نبه اللّه تعالى على مثل ذلك فقال :

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) *

وقال تعالى :

(ليحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) *

ومنه يعمل آلات للحرث والحصاد وآلات تتأثر بها النار وآلات يطرق بها (53) وآلات لقـطع القبـال الصمـة وآلات

---

* سبأ 13.

* لحديد 25.

* الأنبياء 80.

53) الآلات التي تتأثر بها النار هي الآلات التي تساعد على إخمادها.

لنجارة الأخشاب مما يكثر تعدادها فلولا لطف اللّه سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شيء من المنافع ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة وكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأتربة .

ثم انظر إلى ما جعل اللّه تعالى في النار من الفرح والترح عندما تغشى الناس ظلمة اللّيل كيف يستضيؤون بها ويهتدون بنورها في جميع أحوالهم من أكل وشرب وتمهيد مراقد ورؤية ما يؤذيهم ومؤانسة مرضاهم وقصدها والعمل عليها برا وبحرا فيجدون بوجودها أنسا حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم ويدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستعينون بها في الحروب ومقاومة حصون (54) لا تملك إلا بها فانظر ما أعظم قدر هذه النعمة التي جعل سبحانه حكمها بأيديهم أن شاؤوا خزنوها وان شاؤوا أبرزوها .

---

54) في الحروب تم استحداث طرق كثيرة للحصول على قذائف طوية وبعيدة المدى ومهما يكن من أمرها فإن انطلاقها لابد له من شرارة ويطلق على استخدام هذه القذائف اسم اطلق النار . . . أما مقاومة الحصون فيرجع هذا التكتيك إلى عصور قديمة حيث كانت تستخدم ما يسمى بالمجانيق وهي كور من نار تلقى على الحصن وخلف أبوابه وفي العصر الحديث يستخدم النابالم وهو مادة حارقة بدلا من المنجنيق .

باب في حكمة خلق الانسان

قال اللّه تعالى :

(ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) (55)

إلى آخر ما وصفه سبحانه . اعلم وفقك اللّه تعالى أن اللّه عز وجل لما سبق في علمه خلق الخلق وبثهم في هذه الدار وتكليفهم فيها للبلوى .

خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض فخلق سبحانه الذكر والأنثى وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي حتى عجزوا عن الصبر (56) وعدموا الحياة في اجتناب الشهوة فساقتهم الشهوة المفطورة في خلقهم إلى الاجتماع .

وجعل الفكرة تحرك عضوا مخصوصا به إلى ايداع الماء في القرار المكين الذي يخلق فيه الجنين فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن وخرجت ماء دافقا مندفعا من بين الصلب

---

55) المؤمنون 12

56) العجز عن الصبر يستقيم مع طبيعة النفس البشرية ولهذا رفض الاسلام الرهبانية واجتناب الشهوة تعطيل لعنصر الشهوة المفطور في الطبيعة الانسانية ولذا كان الطريق الوحيد الذي أقره الاسلام لعدم تعطيل عنصر الشهوة في الفطرة هو طريق الزواج .

والترائب بحركة مخصوصة (57) فانتقلت بسبب الافلاح من باطن إلى باطن فكانت مع انتقالها باقية على أصلها لأنها ماء مهين أدنى شيء يباشرها يفسدها ويغير مزاجها فهي ماء مختلط جميعه مستوية أجزاؤه لا تفاوت فيها بحال.

فخلق سبحانه منه الذكر والأنثى بعد نقلها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام ثم كساها اللحم وشدها بالأعصاب والأوتار ونسجها بالعروق وخلق الأعضاء وركبها فدور سبحانه الرأس وشق فيه السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ فجعل العين للبصر ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء وهو أمر يعجز عن شرح سره (58)

---

57) تعتبر الخصية هي المصنع الذي يكون الحيوانات المنوية أو النطف. والخصية تتكون من مجموعة ضخمة من الأنابيب المنوية يبلغ طول الأنبوب الواحد مترا ويبلغ عدد الأنابيب في الخصية الواحدة حوالي ألف أنبوب . . . وفي حياة الجنين في الرحم تكون الخصية قرب الكلية في الظهر وبعد الولادة تكون الخصية في مكانها الطبيعي من الجسم. والسبب في هذا يرجع إلى النطفة لا يمكن أن تعيش في حرارة البدن بل لا بد لها من حرارة تقل عن درجة حرارة الجسم من 3 : 4 درجات . . وإذا كان مقر الحيوانات المنوية في عالم الرحم بجوار الكلية في الظهر نتذكر قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا) هذه حقيقة علمية كشف الطب الحديث عنها (ص 64 الطب محراب الايمان)

58) ان الحديث عن سر كون العين مبصرة للأشياء يجعل الاعناق خاضعة خاشعة للباري سبحانه يقول خالص جلبى في الطب محراب =

وركبها من سبع طبقات لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الإبصار.

وانـظر إلى هيئة الأشفار التي تحيط بها وما خلق فيها من سرعـة الحركة لتقى العين مما يصل إليها مما يؤذيها من غبار وغيره فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق في غير وقتهـا ولـما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ولا ينقص نقصا يضر بها وخلق في مائها (59) ملوحة لتقطيع ما يقطع فيها وجعل أطرافها منخفضتين عن وسطهما قليلا لينصرف ما يقع في العـين لأحد الجانبين وجعل الحاجبين جمالا للوجه وسترا للعين وشعرهما يشبه الأهداب في عدم الزيادة المشوهة.

=الايمان مؤسسة الرسالة ص 178 ان الانسان العادي يختزن كل يوم من الصور المرئية فقط نصف مليون صورة في مستودعات الذاكرة في متوسط حياة الانسـان. هذا فقط من ناحية اختزان المرئيات اضف إلى ذلك المسموعات والأشياء التي تشم وتذاق وتلمس وتحس خاصة وان الحواس ليست خمسة فقط كما يتصورالناس بل قد تصل إلى عشرين حاسة كما يقدر عدد العناصر الحساسة للنور القوى والألوان في العين الواحدة 7 مليون عنصر أي ان مجمـوع الأعضاء المستقبلة للنور في العينين يبلغ حوالي 300 مليون عنصر مستقبل للضوء والألوان.

59) ان غدة الـدمع تفرز باستمرار فتطهر العين وترطبها ولكن أين المصروف ؟ ان هناك طريقا خاصا يصرف مفرز الدمع إلى الأنف فإذا=

وجعل شعر الرأس واللحية قابلا للزيادة والنقص فيفعل فيهما ما يقصد به الجمال من غير تشويه.

ثم انظر إلى اللسان وما في ذلك من الحكم فجعل الشفتين ستر للفم كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة إلى فتحه وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال فلولاهما لتشوهت الخلقة وهما معينان على الكلام واللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الانسان وتقليب الطعام والقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه.

ثم جعل الأسنان أعدادا متفرقة ولم تكن عظما واحدا فإن أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقي وجمع فيها بين النفع والجمال وجعل ما كان منها معكوسا زائد الشعب حتى تطول مدته مع

= زادت الكمية طفحت إلى الخارج كما يحدث في البكاء (ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) وإذا تساءلنا ما علاقة التأثير والخشوع بالبكاء نقول : ان حالات الخشوع والتأثر هي حالة وجدانية انفعالية نتيجة معرفة روعة وعظمة القدرة الالهية وينتقل هذا التأثير عبر الأعصاب فتدعو هذه الغدة إلى الافراز فتفرز الدمع حيث تصل النفس إلى مرحلة تعجز عن التعبير فيعبر بالبكاء. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصلي وبجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء. (الطب والايمان ص 509).

الصف الذي تحته وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة إليها على الدوام وفي الأضراس كبر وتسريف لأجل الحاجة إلى درس الغذاء فإن المضغ هو الهضم الأول.

وجعلت الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام وجمالا للفم فأحكم أصولها وحدد دروسها وبيض لونها مع حمرة ما حولها وجعلها متساوية الرأس متناسبة التركيب كأنها الدر المنظوم.

ثم آنظر كيف خلق في الفم نداوة (60) محبوسة لا يظهر إلا في وقت الحاجة إليها فلو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويها للانسان فجعلت ليبل بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم فإذا فقد الأكل عدمت تلك النداوة الزائدة التي خلقت للترطيب وبقي منها ما يبل اللهوات والحلق لتصوير الكلام ولئلا يجف فإن جفافه مهلك للانسان. ثم آنظر إلى رحمة الله ولطفه إذ جعل للآكل لذة الأكل فجعل الذوق في اللسان (61) وغيره من أجزاء الفم ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من الملذوذ فيجد في ذلك راحة في

---

60) يقصد اللعاب الذي تفرزة الغدد اللعابية.

61) ان حكمة خلق اللسان حكمة بالغة يقول د خالص جلبي ان الطعوم والمذاق توضع على اللسان في امكنة محددة. فالطعم الحلو مركز احساسه في مقدمة اللسان. والطعم المر في مؤخرة اللسان وأما المالح

الطعام والشراب إذا دعت حاجة إلى تناوله وليجتنب الشيء الـذي لا يوافقه ويعرف بذلك حد ما تصل الأشياء إليه في الحرارة والبرودة .

ثم إن الله تعالى شق السمع وأودعه رطوبة مرة يحفظ بها السمع من ضر الدود ويقتل أكثر الهوام الذين يلجون (62) السمع وحفظ الأذن بصدفة تجمع الصوت فترده إلى صماخها وجعل فيها زيادة حس لتحس بما يصل إليها مما يؤذيها من هوام وغيره (63) وجعل فيها تعويجات ليتطرد فيها الصوت ولتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتأثر ويتنبه صاحبها من النوم .

فيوضـع على جوانب اللسان كما يحس به معظم أعضاء الفم مثل الشفتين والحنـك وباطن الخدين وقاع الفم وأما الطعام الحامض فيوضع على جوانب اللسان ويحتوي اللسان على 17 عضلة محركة . (الطب والايمان ص 227) .

62) يدخلون .

63) من أعقد الحواس التي يحتويها جسم الانسان « حاسة السمع » ـ قسم الأطباء الأذن إلى ثلاثة أقسام هي الأذن الخارجية والوسطى والداخلية وهي أخـطر الأقسام . لأنها هي التي تستقبل الأصوات . وتستطيع ان تميز ما بين 325 صوتا مختلفا وان المتأمل ليأخذه العجب في قدرة الأذن على التقاط كافة الأصـوات ويميز ما بين صوت الانسان وتغريد البلابل وحفيف الأشجار. وصرير الأقلام . . الخ . وهذه الأصوات قبل دخولها إلى الأذن تحدث حركات اهتـزازية (ترددات) والأذن الطبيعية تسمع الصوت إذا كان مقدار اهتزاز الصوت يتراوح ما بين (16 ـ 200000) هزة في الثانية (الطب في محراب الايمان ج 1 . 191) .

ثم آنظر إلى ادراكه المشمومات بواسطة ولوج الهوى وذلك سر لا يعلم حقيقته إلا الباري سبحانه (64) إلى غير ذلك .

ثم آنظر كيف رفع الأنف في وسط الوجه فأحسن شكله وفتح منخريه وجعل فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعميه ومشاربه ليتنعم بالروائح العطرة ويجتنب الخبائث القذرة وليستنشق أيضا روح الحياة غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه ثم خلق الحنجرة وهيجها لخروج الأصوات ودور اللسان في الحركات والتقطيعات فيقطع الصوت في مجاري مختلفة تختلف بها الحروف لتسع طريق النطق وجعل الحنجرة مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة

---

64) توجد بعض المعلومات الأولية التي اعطاها العلماء في العصر الحديث عن حاسة الشم تتلخص في :

ان حاسة الشم تتركز في الأنف وجدار الأنف الداخلي في ثلاث قطع مغلفة بغشاء مخاطي يعلو بعضها البعض تسمى القرينات وهي تشترك في عملية تسخين الهواء أثناء مروره بالأنف وفوق القطعة العلوية التي تسمى بالقرين العلوى تؤجد المنطقة الشمية وفي هذه المنطقة تتوزع الألياف. بحيث يكون لكل خلية شمية 6 : 8 أهذاب تغطى في سائل مخاطى يعلوها. فإذا وصلت الروائح الشمية إلى تلك المنطقة احلت في السائل المخاطى أولا ثم في المواد التي تحويها تلك الأهداب وهي من طبيعة دسمة تساعد على حل المواد الكيماوية .

لذا كانت عملية الشم عملية كيماوية. وعملية الصوت تقوم على قواعد فيزيائية وأما الضوء فهذا اعقد بكثير. الطب والايمان 225 .

الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسبب ذلك الصوات فلم يتشابه صوتان.

كما خلق بين كل صورتين اختلافا فلم تشتبه صورتان بل يظهر بين كل صورتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت وكذلك يظهر بين كل شخصين فرقان وذلك لسر التعارف فإن الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما فخلق منها خلقا جعله مخالفا أخلق أبيه وأمه ثم توالى الخلق كذلك لسر التعارف (65).

ثم آنظر لخلق اليدين وهداهما إلى جلب المقاصد ودفع المضارّ وكيف عرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم الأصابع بأنامل وجعل الأربعة في جانب والابهام في جانب فيدور الابهام على الجميع فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستطيعوا بدقيق الفكر وجها آخر من وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الأربعة في الطول وترتيلها في صف واحد لم يقدروا على ذلك وبهذا الوضع صلح بها القبض والاعطاء فإن بسطها كانت طبقا يضع عليه ما يريد وإن جمعها كانت آلة يضرب بها وإن ضمها ضما غير تام كانت مغرقة له وإن بسطها وضم أصابعه كانت مجرفة.

---

65) قال تعالى « انا خلقناكم من ذكر وأنثى فجعلناكم شعوب وقبائل لتعارفوا.

ثم خلق الأظافر على رؤوسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائهـا حتى لا تضعف ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل لولاها وليحك بها جسمه عند الحاجة إلى ذلك فأنظر أقل الأشياء في جسمه لو عدمها وظهرت به حكة لكان أضعف الخلق وأعجزهم عن دفع ما يؤلمه وجلب ما ينتفع به في ذلك ولم يقم له غير الظفر مقامه في حك جسده لأنه مخلوق لذلـك ولغـيره فهو صلبٌ كصلابة العظام ولا رخو كرخاوة الجلد يطول ويخلق ويقص ويقصر لمثل ذلك ثم جعله يهتدي به إلى الحك في حالة نومه ويقظته ويقصد المواضع إلى جهتها من جسده ولو احتاج إلى غيره واستعان به في حكمها لم يعثر الغير على مواضع الحاجة إلا بعد طول تعب.

ثم انظر كيف مد منه الفخذين والساقين وبسط القدمين ليتمكن بذلك من السعي وزين القدمين بالأصابع وجعلها زينة وقوة على السعي وزين الأصابع أيضا بالأظفار وقواها بها ثم انـظر كيف خلق هذا كله من نطفة مهينة ثم خلق منها عظام جسده فجعلها أجساما قوية صلبة لتكون قواما للبدن وعمادا له وقدرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسقة فمنها صغير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ثم أودع في أنـابيب هذه العـظام المخ الـرقيق (66) مصـانا لمصلحتها وتقويتها.

66) يقصد النخاع الشوكي المتصل بالمخ.

ولما كان الانسان محتاجا إلى جملة جسمه وبعض أعضائه لتردده في حاجاته لم يجعل اللّه سبحانه عظامه عظما واحدا بل عظاما كثيرة وبينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة فقدر شكل كل واحـد منهـا على قدر وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أثبتها بأحد طرفي العظم والصق الطرف الآخر كالرباط.

ثم خلق في أحـد طرفي العـظم زوائد خارجة منها ومن الآخـر نقرا غائصة فيها توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق فصار الانسان إذا أراد أن يحرك شيئا من جسده دون غيره لم يمتنع عليه فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم انـظر كيف جعـل خلق الرأس (67) مركبا من خمس

---

67) ان منطقة الرأس هي رأس الأمر بالنسبة للانسان قدر بعض العلماء ان المرئيات أو المسموعات تنطبع في الدماغ كما تنطبع الصورة على جزئيات الفضة في لوحة الفوتوغراف الحساسة. ومنطقة الصدغ في الدماغ إذا أصيب الانسان فيها يؤدي إلى اضطراب الذاكرة. والدماغ لا يعرف التعب حتى لو عمل ما يزيد على عشر ساعات متواصلة. وانما الـذي يتعب هو البدن وان أي تخريب في منطقة الدماغ يعنى خسارة أعظم وأثمن الأشياء عند الانسان ألا وهي الذاكرة. (الطب محراب الايمان 181 / 182)

وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور وألف بعضها إلى بعض بحيث استوت كرة الرأس كما ترى.

فمنها ستة تختص بالقحف وأربعة وعشرون للحى الأعلى واثنان للحى الأسفل والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن وبعضها حاد يصلح للقطع ثم جعل الرقبة مركز الرأس فركبها من سبع خرزات [68] مجوفات مستديرة وزيادات ونقصان لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها.

ثم ركب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة [69] وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة ووصل به من أسفله عظم العصص وهو مؤلف من ثلاثة أخرى.

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين فجملة عدد العظام في بدن الانسان مائتان عظم وثمانية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل.

---

68) يقصد فقار العنق

69) العمود الفقري

فانظر كيف خلق الباري سبحانه وتعالى ذلك كله من نطفة رقيقة سخيفة والمقصود من ذكر اعدادها تعظيم مدبرها وخالقها وكيف خلقها وخالف بين أشكالها وخصها بهذا القدر المخصوص بحيث لو ازداد فيها واحد كان وبالا واحتاج الانسان إلى قلعه ولو نقص منها واحد لاحتاج الانسان إلى جبره.

فجعل سبحانه وتعالى في هذا الخلق عبرة لأولى الأبصار وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها. ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الانسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجاتها فاربعة منها لحركة العين وأجفانها بحيث لو نقصت منها واحدة اختل أمر العين.

وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر يوافقه وأما أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين ومنابتها وسعتها فأعجب من هذا وشرحه يطول ثم عجائب ما فيه من المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم.

ثم انظر إلى ما شرف به وخص في خلقه بأنه خلق ينتصب قائما ويستوي جالسا ويستقبل الأمور بيديه وجوارحه ويمكنه

العــلاج والعمــل ولم يخلق مكبـوبـا على وجهـه كعـدة من الحيوانات إذ لو كان كذلك لما استطاع هذه الأعمال.

ثم انظر من حيث الجملة إلى ظاهرة هذا الانسان وباطنه فتجده مصنوعا صنعة بحكمة يقضى منها بالعجب وقد جعل سبحانه اعضاءه تامة بالغذاء والغذاء متوال عليها لكنه تبارك وتعـالى قدرها بمقادير لا يتعداها بل يقف عندها ولا يزيد عليها فإنها لو تزايدت بتوالي الغذاء عليها لعظمت أبدان بني آدم وثقلت عن الحركة وعطلت عن الصناعات اللطفية (70) ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها ومن اللباس كذلك ومن المساكن مثل ذلك.

وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر رحمة من اللّه ورفقا بخلقه فإذا وجدت هذا كله صنعة اللّه تعالى من قطرة ماء فما ظنك بصنعته في ملكـوت السموات والأرض وشمسهـا وقمـرهـا وكـواكبهـا وحكمته في أقدارها وأشكالها وعدادها وأوضاعها واجتماع بعضها وافتراق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها.

---

70) الاسلام يدفع اتباعه إلى عمارة الكون وإلى الأخذ بالأسباب وإلى المسير في أرض اللّه الواسعة وتدبر ما فيها والوقوف على مدها وجزرها وطبيعة خلق الانسان وما وفره اللّه له من حرية حركة لأكبر دليل على مطالبة الحق سبحانه بعمارة الكون ولو أراده الله جالسا لخلقه جالسا .. الخ.

فلا تظن أن ذرة في السموات والأرض وسائر عالم اللّه ينفك عن حكمة بل ذلك مشتمل على عجائب وحكم لا يحيط بجميعها إلا اللّه سبحانه وتعالى ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى :

(أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها) *

إلى آخر ما نبه به وتأمل لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعا وبصرا وحياة لم يقدروا على ذلك فانظر كيف خلقها سبحانه في الأرحام وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وصورها فأحسن تصويرها وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها ورتب عروقها وأعصابها ودبر ظاهرها وباطنها وجعل فيها مجرى لغذائها ليكون ذلك سببا لبقائها مدة حياتها .

ثم كيف رتب الأعضاء الباطنة من القلب والكبد والمعدة والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل عضو بشكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص فجعل المعدة لنضج الغذاء عصبا معينا شديدا لحاجتها وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه وجعل طحن الأضراس أولا معينا للمعدة على

* النازعات 27 .

جودة طحنه وهضمه وجعل الكبد لاحالـة الغذاء إلى الدم فيجذب منه إلى كل عضو من الغذاء ما يناسبه فغذاء العظم خلاف غذاء اللحم وعذاء العروق خلاف غذاء الأعصاب وغذاء الشعر خلاف غذاء غيره وجعل الطحال والمراة والكلية لخدمة الكبد.

فالطحال لجذب السوداء والمرارة لجذب الصفراء والكلية المائية عنه والمثانة لقبول الماء عن الكلية (71) ثم يخرجه في مجرى الأحليل والعروق والكبد في اتصال الدم منه إلى سائر أطراف البدن وجعل جوهرها اتقن من جوهر اللحم ليصونه ويحصره فيه بمنـزلـة الظروف والأوعية ثم انظر كيف دبره في الرحم ولطف به ألطافا يطول شرحها ولا يستكمل العلم بجملتها إلا خالقها ويعجز الواصف عن وصف ما وصل إليه نظره من ذلك.

فمن ذلـك جعله فيهـا لا يحتاج إلى استدعاء ولا يحتاج المولود إلى ما يبين ذلك لا بوعظ ولا تنبيه بل ذلك في الطباع إلى وقت حاجة المولود إلى الاغاثة في غذائه ولولا ذلك لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب وكلفة التربية حتى اشتد جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء فحينئذ انبت له الأسنان عند الحاجة إليها لا قبل ذلك ولا بعده.

---

71) الكلية لتنقية الدم من السموم

ثم انظر كيف خلق اللّه فيه التميز والعقل على التدريج إلى حين كماله وبلوغه وانظر وفكر في سر كونه يولد جاهلا غير ذي عقل وفهم فانه لو كان ولد عاقلا فهما لانكر الوجود عند خروجه إليه حتى يبقى حيران تائه العقل إذ رأى ما لا يعرف وورد عليه ما لم يره ولم يعهد مثله.

ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولا وموضوعا معصبا بالخرق ومسجى في المهد مع كونه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد.

ثم كان لا يوجد من الرقة والحلاوة والمحبة في القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه بعقله واختياره لنفسه فتبين أن ازدياد العقل والفهم فيه على التدريج أصلح به.

أفلا يرى كيف أقام كل شيء من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب واعلمه تقلب الخطأ في دقيقه وجليله ثم انظر فيها إذا اشتد خلق فيه طريقا وسببا للتناسل وخلق في وجهه شعرا ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان ويجمله ويستر به غصون وجهه وعند شيخوخته وإن كانت انثى ابقى وجهها نقيا من الشعر لها بهجة ونضارة تحرك الرجال لما في ذلك من بقاء النسل.

فكـر الآن فيما ذكـرنـاه ودبـره سبحـانه في هذه الأحوال المختلفة هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مهملا أرأيت لو لم يجر له الدم غذاء وهو في الرحم ألم يكن يذوي ويهلك ويجف النبات إذا انقطع عنه الماء.

ولو لم يزعجه المخاض عند استكماله ألم يكن يهلك ببقائه في الرحم هو وأمه ولو لم يوافه اللبن عند ولادته ألم يكن يموت جوعا وعطشا أو يغذّى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه ولو لم يخلق له الأسنان في وقتها ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراده ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه ولو لم يخرج له شعر الوجه لبقي في هيئة النساء والصبيان فلا ترى له هيبة ولا جلالة ولا وقار ومن ذا الذي صده حتى يوفيه بكل هذه المآرب في وقتها إلا الذي أنشأه بعد أن لم يكن شيئا مذكورا وتفضل عليه ومن عايه بكل هذه النعم.

فكـر في شهوة الجماع الداعية لاحيائه والآلة الموصلة إلى الرحم النطقة والحركة الموجبة لاستخراج النطفة وما في ذلك من التدبير المحكم.

ثم فكر في جملة اعضاء البدن وتهيئة كل عضو منها للارب الذي أريد منها فالعينان للاهتداء بالنظر.

واليدان للعلاج والجذب والدفع.

والرجلان للسعي.

والمعدة لهضم الطعام.
والكبد للتخليص والتمييز.
والفم للكلام ودخول الغذاء والمنافذ لدفع الفضلات

وإذا تأملت كذلك مع سائر ما في الانسان وجدته قد وضع على غاية الحكمة والصواب.

فكر في وصول الغذاء إلى المعدة حتى ينضجه ويبعث صفوه إلى الكبد في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء ولكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها فإنها خلقت دقيقة لا تحمل الغث فتقبله باذن اللّه دما وتنفذ إلى سائر البدن في مجار مهيأة لذلك فيصل إلى كل شيء من ذلك ما يناسبه من يابس ورخو وغير ذلك فتبارك اللّه رب العالمين.

ثم ينفذ ما يكون من خبث وفضول إلى معابض وأعضاء أعدت لذلك كما ذكرنا قبل هذا فكونها كالاوعية تحمل هذه الفضلات لكيلا تنتشر في البدن فتسقمه ثم انظر هل تجد في خلق البدن شيئا لا معنى له هل خلق البصر إلا ليدرك الأشياء والألوان فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها هل كان في الألوان منفعة ولو لم يكن لخلق الأبصار نور خارج عن نورها ما كان ينتفع بالبصر وهل خلق السمع إلا ليدرك الأصوات

فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الأصوات منفعة كذلك سائر الحواس.

فكر في أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها منها الضياء والهواء فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت. فكر فيمن عدم البصر والسمع وما يناله من الخلل فإنه لا ينظر أين يضع قدمه ولا يدري ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان ولا يدري بهجوم آفة أو عدو ولا سبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات وأما من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الأصوات المستحسنة والألحان المطربة وتعظم المؤونة على من يخاطبه حتى ينفر منه ولا يسمع شيئا من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يصير كالغائب وهو شاهد والميت وهو حي.

وأما من عدم العقل فهو شر من البهائم فانظر كيف صارت هذه الجوارح وهذه الأوصاف التي بها صلاح الانسان محصلة ومبلغة لجميع مآربه ومتممة لجميع مقاصده وإذا فقد شيئا اختل وعظم مصابه ومن بلي بفقد شيء منها فهو تأديب وموعظة وتعريف بقدر نعمة اللّه في حقه وحق أمثاله ولينال بصبره على ذلك حظا في الآخرة فانظر إلى رحمة اللّه كيف توجد في العطاء والمنع.

ثم فكر في الأعضاء التي خلقت أفرادا وأزواجا وما في ذلك من الحكمة والصواب فالرأس مما خلق فردا كثيرا من الحواس قد حوتها رأس واحدة ولو زاد عليها شيء كان ثقلا لا يحتاج إليه فإن كان قسمين منهما فإن تكلم احدهما بقي الآخر معطلا لا حاجة إليه وان تكلم منهما جميعا بكلام واحد كان أحدهما فضلة لا يحتاج إليها وأن تكلم من أحدهما بخلاف ما تكلم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك وانما الذي يأخذ به السامع هو ما كان واضحا واليدان خلقتا أزواجا ولم يكن للانسان خير في أن يكون بيد واحدة لاختلاف ما يعالجه من الأمور فإنك ترى من شلت احدى يديه ما يكون عنده من النقص وإن يكلف بشيء لم يحكمه ولا يبلغ ما يبلغ صاحب اليدين وحكمة الرجلين ظاهرة.

فكر في تهيئة آلات الصوت فالحنجرة كالانبوبة لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لاصاغة الحروف والفم ألا ترى أن من سقطت أسنانه أو أكثرها كيف يحصل الخلل في كلامه.

ثم انظر إلى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها إلى الرئة فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع وما في اللسان من تقليب الطعام واعانته على تسويغ الطعام والشراب وما في الأسنان من المعونة أيضا ثم هي كالسند للشفتين تمسكهما

وتـدعهـما من داخل الفم وبالشفتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله إلى الجوف بقصد وبقدر ما يختاره الانسان ثم هما على الفم كالباب فقد تبين أن كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف إلى وجـوه من المآرب وضروب من المصالح إن زاد أفسد وان نقص أفسد فذلك تقدير العزيز العليم .

فكر في الدماغ إذا كشف عنه فإنك تجده قد لف بعضه فوق بعض ليصـونـه من الأعراض وأطبقت عليه الجمجمة والشعر ستر لها وجمال وليبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد وغير ذلك فحصن سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه مهم وأنه مستحق لذلك لكونه ينبوع الحس .

ثم انظر كيف غيب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشاؤه واتقنها وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه وأن ذلك اللائق به .

ثم انظر كيف جعل في الحلق منفذين أحدهما للصوت وهو الحلقوم الواصل إلى الرئة والآخر للغذاء وهو المريء الواصل إلى المعدة وجعل على الحلقوم طبقا[72] يمنع الطعام أن يصل إليه ثم جعل الرئة مروحة للفؤاد لا تفتر ولا تخل تأخذ وترد بغير كلفة لئلا تنحصر الحرارة في القلب فتؤدي إلى التلف ثم ملأ الجو هواء لهذه المصلحة ولغيرها .

---

72) هو لسان المزمار

ثم انظر كيف جعل لمنافذ البول والغائط أسراحا يضبطها لكي لا يجري جريانا دائما فيفسد على الانسان عيشته.

ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيرا كثيفا ليقي الانسان من ألم الجلوس على الأرض كما يألم الجلوس من نحل جسمه وقل لحمه اذ لم يكن بينه وبين الأرض حائل.

انظر لو كان ذكر الرجل مسترخيا أبدا كيف يصر الماء إلى موضع الخلق ولو كان منعظا أبدا يكون حاله في تصرفاته وهو كذلك بل جعله مستورا كأنه لم تخلق له شهوة.

ثم انظر أليس أنه من حسن التدبير في البناء أن يكون الخلاء في أستر موضع في الدار فلهذا اتّخذ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الانسان في أستر موضع من جسده مغيب فيه تلتقي عليه فخذاه بما عليهما من اللحم فتواريه به ويخفى ذكره وذلك مخصوص بالانسان لشرفه.

ثم انظر في خلق الشعر والأظفار لما كانا يطولان وفي تقصيرهما مصلحة جعلا عديمي الحس حتى لا ينال الانسان ألم عند التزين بقصهما ولولا هذه الحكمة لكان بين أمرين أما أن يدعهما على حالهما فيتشوه خلقه أو يزيل ذلك فيتألم بإزالته.

ثم تفكر في الشعور لو نبتت في العين لأعمت البصر أو في الفم لنغصت الأكل والشرب أو في راحة الكف لفقدت لذة اللمس وبعض الأعمال أو في الفرج لكدرت لذة الجماع مع قبول هذه المواضع لنباتها فيها فسبحان المدبّر المنعم بهذه النعم .

فانظر كيف قصد بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطأ والضرر ثم فيما جبل عليه الانسان من الاحتياج إلى المطعم والنوم والجماع (73) وما في ذلك من التدبير المحكم فقد جعل في طبعه محرك يقتضيه ويستحثه فالجوع والعطش يقتضي طلب الطعام الذي به حياته وكذلك الشراب الذي به قوامه والنوم فيه راحة البدن وعموم القوى والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وبقاؤه فلو كان الانسان انما يتناول الطعام والشراب لمعرفته بالحاجة إليه ولم يجد من طباعه ما يلجئه إليه لاشتغل بأسباب ضرورته فتنحل قواه ويهلك كما أنه قد يحتاج إلى دواء يكرهه وفيه صلاحه وليس في جبلته داعية له فيدافع في تناوله فيمرض أو يموت فكذلك لو كان يفعل النوم ويدخله على جسمه باختياره لتشاغل عنه ببعض مهماته فيهلك جسمه بالتعب والنصب .

---

73) الدوافع والحاجات

وكذلك لو كان اقدامه على الجماع انما هو لرغبة حصول الولد لا نقطع النسل لما يعارضه من الأسباب المشغلة فانظر كيف جعل فيه بالطبع ما يضطره إلى حصول هذه الفوائد.

انـظر كيف رتبت هذه القـوى بهذا الـترتيب المحكم العجيب فصار البدن بما فيه بمنزلة دار لملك فيها حشم وقوم موكلون بالدار فواحد لامضاء حوائج الحشم وايراد ماء لهم وآخر لقبض ما يرد وخزنه إلى أن يعالج ويهيأ وآخر لاصلاح ذلك وتهيئته واصلاحه مما قبل وآخر لكسح ما في الدار من الأقـذار واخـراجـه فالملك في هذا المثـل هو الخالق العليم سبحانه والدار هي بدن والحشم هي الأعضاء والقوم في هذه القوى الأربع التي هي النفس وموقعها من الانسان بمعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ والغضب وغير ذلك أرأيت لو نقص من الانسان من هذه الصفات الحفظ وحده كيف كان يكون حاله ان كان لا يحفظ ما له وما عليه وما أصدر وما أورد وما أخذ وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ولا من أسـاء له ولا من نفعه ممن ضره وكان لا يهتدى لطريق ولو سلكه ولا لعلم ولو درسه ولا ينتفع بتحريره ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى.

فانـظر إلى هذه النعم كيف موقـع الـواحدة منها فكيف جميعها. وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان فلولا النسيان

ما سلا الانسان عن مصيبة فكان لا ينقص له حسرة ولا يذهب عنه حقد ولا يستمتع بشيء من لذات الشهوات الدنيوية مع تذكر الآفات والفجائع والمغضبات وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ولا فترة ولا ذهولا من حاسد أو قاصد مضرة.

فانظر كيف جعل اللّه فيه سبحانه الحفظ والنسيان وهما متضادان وجعل للانسان في كل منهما ضروبا من المصالح. ثم انظر إلى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء فلولاه لم تقل العثرات ولم تقض الحاجات ولم يقر الضيف ولم يرغب في الجميل فيفعل ولا يتجافى عن القبيح فيترك حتى ان كثيرا من الأمور الواجبة انما تفعل لسبب الحياء من الناس فترد الأمانات وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما ويعف عن فعل الفواحش إلى غير ذلك من أجل الحياء فانظر ما أعظم موقع هذه النعمة في هذه الصفة.

وانظر ما أنعم اللّه به من النطق يميز به عن البهائم فيعبر بما في ضميره ويفهم عن غيره ما في نفسه. وكذلك نعمة الكتابة التي تفيد أخبار الماضين للباقين وأخبار الباقين للآتين وبها تخلد في الكتب العلوم والآداب ويعلم الناس ذكر ما يجرى بينهم في الحساب والمعاملات ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست العلوم وضاعت الفضائل والآداب وعظم الخلل الداخل على الناس في

أمورهم بسبب عدمها فان قلت إن الكلام والكتابة مكتسبة للانسان وليست بأمر طبيعي ولذلك تختلف الخطوط بين عربي وهندي ورومي إلى غير ذلك وكذلك الكلام هو شيء يصطلح عليه فلذلك اختلف.

قلنا ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ للكتابة والذهن والفكر الذي يهتدى به ليس بفعل الانسان ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبدا فسبحان المنعم عليه بذلك وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعي فيه والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم أبدا فسبحان المنعم عليه بذلك.

ثم انظر إلى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه به ما يؤذيها وما خلق فيه من الحسد (74) فبه ما يسعى في جلب ما ينتفع به غير أنه مأمور بالاعتدال في هذين الأمرين فان جاوز الحد فيهما التحق برتبة الشياطين بل يجب أن يقتصر في حالة الغضب عن دفع الضرر وفي الحسد على الغبطة وهي ارادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره.

ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضا صلاحه فمن ذلك الأمل فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل ليرث الضعفاء عن الأقوياء منافع العمارة فان الخلق أول ما يخلق ضعيف فلولا أنه يجد آثار قوم أصلوا وعمروا لم يكن له محل يأوي إليه ولا آلة

---

74) لعله يقصد المنافسة فان الحسد مرض هدام

ينتفع بها فكان الأمل سببا لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع الآتين وهكذا يتوارث إلى يوم الدين ومنع الانسان من علم أجله ومبلغ عمره لمصلحة فانه لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لم تهنه الحياة ولم ينشرح لوجود نسل ولا لعمارة أرض ولا لغير ذلك ولو علمها وكانت طويلة لانهمك في الشهوات وتعدى الحدود واقتحم المهلكات ولعجز الوعاظ عن ايقافه وزجره عما يؤديه إلى اتلافه فكان في جهله بمدة عمره مصلحة حصول الخوف بتوقع هجوم الموت ومبادرة صالح الأعمال قبل الفوات .

ثم انظر إلى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمة على اختلاف طعومها وأصناف الفواكه مع اختلاف ألوانها وبهجتها وأصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعها وطيور يلتذ بسماعها ونقود وجواهر يقتنيها ويصل إلى أغراضه ويجدها في مهماته وعقاقير يستعملها لحفظ صحته وبهائم لمأكله ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك وأزهار وغيرها من العطريات يتنعم بروائحها وينتفع بها وأصناف من الملابس على اختلاف أجناسها وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من العقل والفهم ماذا ركب اللّه فيه من العجائب ؟

ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد في تملك ما ينتفع به بنو آدم ليتميز منهم الفقير عن الغنى فيكون ذلك سببا لعمارة هذه

الـدار ويشتغـل النـاس بسبب ذلـك عما يضرهـم في غالب الأحـوال فمثـالهم .فيما اشتغلوا به مثال الصبى فإنه يشتغل لنقص عقله فيما يضر به نفسه ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالا عليه وكم عسى أن يعد العاد من الحكم والطائف التي يقصد بها قوام العالم وبقاؤه إلى الأجل المعلوم وهي مما لا تدخل تحت حد ولا يحصرها عد ولا يعلم منتهى حقائقها واحصاء جملتها إلا الحكيم العليم الـذي وسعت رحمتـه وعلمـه كل شيء وأحصى كل شيء عددا .

خاتمة هذا الباب

اعلم أن الباري سبحانه وتعالى شرف هذا الآدمي وكرمه فقال سبحانه :

(ولقـد (75) كرمنـا بنى آدم وحملنـاهـم في الـبر والبحـر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)

فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه العقل الذي تنبه به على البهيمة وألحقه بسببه بعالم الملائكة حتى تأهل به لمعرفة باريه ومبدعـه بالنظر في مخلوقاته والاستدلال به على معرفة صفاته بما أودعه في نفسه من حكمة وأمانة قال اللّه العليم :

---

75) الاسراء 70

(وفي أنفسكم أفلا تبصرون) *

فكـان نظره في نفسـه وفيما أودع الباري سبحانه فيه من العقل الذي يقطع بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم الدلالات عنده على وجود باريه ومدبره وخالقه ومصوره فإنه ينظر في العقل وكيف فيه التدبير وفنون العلم ومستقر المعرفة وبصـائر الحكمة والتمييز بين النفع والضرر وهو مع القطع بوجوده لا يرى له شخصا ولا يسمع له حسا ولا يجس له مجسا ولا يشم له ريحا ولا يدرك له صورة ولا طعما وهو مع ذلك آمر ومطاع وراج ومفكر ومشاهد للغيوب ومتوهم للأمور اتسع له ما ضاق عن الأبصار ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية يؤمن بما غيبته حجب اللّه سبحانه مما بين سمواته وما فوقها وأرضه وما تحتها حتى كأنه شاهده أبين من رأى العين فهو موضع الحكمة ومعـدن العلم كلما ازداد علما ازداد سعـة وقوة يأمر الجوارح بالتحـرك فلا يكاد ان يميز بين الهمة بالحركة وبين التحرك بسرعة الطاعة أيهما أسبق وان كانت الهمة قبل وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن معرفة نفسه إذ لا يمكنه أن يصف نفسـه بنفسه بصفة وهيئة أكثر من الإقرار بأنه مسلم للذي وصفه للعلم به ومقر بالجهل بنفسه وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم يميز بين لطائف التدبير ويفرق بين دقائق الصنع .

---

* الذاريات 21 .

وتجري الأمور وقد تدبرها ويتوهم العواقب ويمثلها ويدل على الأمور على اختلافها فدل جهله بنفسه وعلمه بها يدبر ويميز أنه مركب مصنوع مصور ومدبر مقهور لأنه مع حكمته واتقاد بصيرته عاجز مهين يريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينساه فيذكره ويرد أن يسر فيحزن ويريد أن يغفل فيذكر ويريد أن يتنبه ويتيقظ فيسهو ويغفل دلالة على أنه مغلوب مقهور وهو مع ما علم جاهل بحقائق ما علم ومع ما دبر لا يدري كم مدى مبلغ نظره ولا كيف ركب نوره ولا كيف أدرك الأشخاص ولا كم قدر قوته ولا كيف تركب ارادته وهمته فاستدل بعلمه وجحده عن حقيقة ما علم أنه مصنوع بصنعة متقنة وحكمة بالغة تدل على الصانع الخالق المريد العليم عزّ وجل.

ثم خلق في الانسان الهوى موافقا لطباعه فإن استعمل نور العقل فيما أمر به ورد مورد السلامة وفاز غدا بدار الكرامة وان استعمله في اغراض نفسه وهواها حجب عن معرفة أمور لا يدركها غيره مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة من الثواب والحجاب والعقاب وهو الآلة له في عمل الصنائع وتقديرها على نحو ما قدرها ودبرها في ذهنه وتخيله واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة في كل أمة وزمان أو استحسان ما يحسن في عوائد العقلاء والفضلاء وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الاعتياد.

فانظر ما شرف هذا الانسان أن خلق فيه ما يفيده هذه المعارف فان الأواني تشرف بشرف ما يوضع فيها ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة باللّه سبحانه شرفت بذلك ولما سبق في علم الباري سبحانه وارادته وحكمه بمصير الخلق إلى دار غير هذه الدار ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطلعون به على أحكام تلك الدار بل كمل لهم سبحانه هذا النور الذي وهبهم اياه بنور الرسالة إليهم فارسل الأنبياء صلوات اللّه عليهم مبشرين لأهل طاعته منذرين لأهل معصيته فمدهم بالوحي وهيأهم لقبوله وتلقيه فكانت أنوار ما جاء به الوحي من عند اللّه بالنسبة إلى نور العقل كالشمس بالاضافة إلى نور النجم فدلوا العباد على مصلح دنياهم فيما لا تستقل بادراكه عقولهم وأرشدوهم إلى مصالح أخراهم التي لا سبيل للعباد أن يعرفوها إلا بواسطتهم وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ما جاؤوا به ما أوجب الاذعان والانقياد لصدق أخبارهم فتمت بذلك نعمة اللّه على عباده وظهرت كرامته وثبتت حجته عليهم.

فانظر ما أشرف الآدمي ونسله الذين ظهرت منه هؤلاء الفضلات الذين هم قابلون هذه الزيادات الفاضلة ثم تضافرت الشرائع التي هي كالشمس وأنوار العقول التي هي كالنجم فتمت سعادة من سبق له من اللّه الحسنى وشقاوة من كذب ولم يرد إلا الحياة الدنيا.

ثم أن اللّه تبارك وتعالى من على الانسان بان خصه برؤيا يراهـا في منامه أو في عينه كشبه المنام يمثل له فيهم بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه وهي مبشرة أو منذرة له لما يتوقعه بين يديه كل ذلك مواهب وكرامات من وجود اللّه سبحانه وجعل استقامته على الطاعة في قلبه وجوارحه سببا لصدقها في غالب الأمـر ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها وهي الأمـور التي انفـرد اللّه بعلم العاقبة فيها واطلع على بعض الأمور منها من شاء .

باب في حكمة خلق الطير

قال اللّه سبحانه وتعالى :

(ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا اللّه) (76)

اعلم رحمك اللّه أن اللّه تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران ولم يخلق فيه ما يثقله وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذاءه فقسم لكل عضو منه ما يناسبه فان كان رخوا أو يابسا أو بين ذلك انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله واعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه وجعلها واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي خف فيه أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه وجعل جلد ساقيه غليظا متقنا جدا ليستغنى به عن الريش في الحر والبرد.

وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه فاغناه سبحانه عن

---

76) النحل 79

الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصا للطيران وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذائه من غير حرج بها إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعي لا في البراري ولا في البحار حتى ينكب على صدره وكثيرا ما يعان بطول المنقار أيضا مع طول العنق ليزداد مطلبه عليه سهولة ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه وخلق صدره وجعل دائره ملفوفا مرتبا على عظم كهيئة نصف دائرة حتى يخرق في الهواء بغير كلفة.

وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران وجعل لكل جنس من الطير منقارا يناسب رعيه ويصلح لما يتغذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم ومنها عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقا محكما ومنه معتدل اللقط لأكل الخضر ومنه طويل المنقار للحفر وجعله صلبا شديدا شبه العظم وفيه ليونه ما هي في العظم لكثرة الحاجة إلى استعماله وهو مقام الاسنان في غير الطير من الحيوان.

وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصبا منشوبا فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الاتقان لأجل الريش وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد ومعونة لتخلله الهواء

للطيران وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبته وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة إليه وجعل في سائر بدنه ريشا غيره كسوة ووقاية وجمالا له وثبت أصل جميعه لأنه جبيرته وجماله وجعل في ريشه من الحكمة أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه فإن أصابه ما كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته وجعل له منفذا واحدا للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه فلولاه لما مالت به الأجنحة في حال الطيران يمينا وشمالا فكان له بمنزلة رجل السفينة الذي يعدل بها سيرها وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته ولما كان طعامه يبتلعه بلعا بلا مضغ جعل لبعضه منقارا صلبا يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية وصار يزدرد ما يأكله صحيحا وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحنا يستغنى به عن المضغ وثقل الاسنان واعتبر ذلك بحب العنب وغيره فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحا وينسحق في أجواف الطير ثم أنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران، فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وتعوق بها عن النهوض للطيران.

أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة انظر إلى من أنزله وألهمه الرقاد على بيضه فيحضنه مدة الحضانة من ألهمه أن يلتقط الحب فإذا ماع في باطنه غذى به أفراخه وهذا نوع من الطير ثم انظر هذا كيف احتمل هذه

المشقة وليست له رؤية ولا فكر في عاقبة ولا أمل يأمله في أفراخه كما يأمل الانسان في ولده من العز والرفد وبقاء الذكر فهل هذا قطعا إلا الهام الهي من فعل اللّه سبحانه .

انظر كيف ألهم معرفة حمل الانثى منه بالبيض فالهموا حينئذ حمل الحشيش وتوطئته في موضع التحضين والولادة لتكون الرطوبة والتوطئة تحفظ البيض ويكون البيض محفوظا في المهاد الذي يمهدونه ويستحسنونه في حال تحضينه .

انظر إلى الحمام كيف ألهم معرفة كمال الفراخ وانتهاء تحضينه للبيض حتى يكشف عن الفرخ ويخرجه وان اتفق في البيض فساد بسبب عرق قام وتركه ثم انظر الهامه بما يزق [77] به فرخه فانه أولا يزقه بالريح لتستعد حوصلته لقبول ما يوضع فيها ثم بعد ذلك يزقه من أول هضم ثم إذا ماع الغذاء في حوصلته يزقه به حتى يدرجه ويفعل ذلك مرارا حتى يملأ حوصلته فإنه لو أوصله إليه حبا صحيحا لعجز عن هضمه لضعف جسده فانظر ان كان هذا من فعل الطير وحكمته .

ثم انظر عند خروج الفرخ من البيض كيف يسنده إلى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به ومن الطير

---

77) أي يطعمه بفمه مادة مهضومة أشبه باللبن في الثدييات

ما يخلق على هيئة أخرى لحكمة أخرى ولتعلم أن قدرة اللّه لا تنحصر في نوع واحد بل كل حال له حكم يقوم بمصلحة ذلك الشيء وذلك ان الدجاج ما فيهم أهلية الزّق بل جعلت فراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة. ثم انظر في الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين خوف أن يفسد بيضهم فيعقب هذا صاحبه كأن لهم علما بان عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم.

ثم انظر إلى خلق البيضة وما فيها من الحكم للّه ففيها الماء الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق فبعضه لينشأ منه جسده وبعضه يتغذى به إلى أن ينشق عنه وما في ذلك التدبير من الحكم العجيبة وكيف جعل معه غذاءه في بيضة مغلقة تلتقى به إلى حين كماله فيها وخروجه منها ثم انظر في حوصلة الطائر وما في خلقها من التدبير فإن مسلك طعامه إلى القانصه ضيق لا ينفذ إليه إلا قليلا فلو كان لا يلتقط حبه حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال الأمر عليه مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه ما يؤذيه فصار ما يحتكره احتراسا لشدة حذره فجعلت لـه الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليودع فيها ما أدرك من الطعام بسرعة ثم ينفذه إلى القانصة على مهل.

وفيها حكمة أخرى فان الطير الذي يزق أفراخه يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه ثم تأمل ريش الطائر فإنك تجده

منسوجا نسج الثوب من سلوك رقاق وفيها من اليبس ما يمسك ما حولها ومن اللين ما لا تنكسر معه وهي خاوية قد ألف بعضها إلى بعض تأليف الخيط إلى الخيط والشعر إلى الشعر ثم تجده إذا فتحته أعني النسيج ينفتح قليلا ولا ينشق ليدخله الريح فيثقله عن طيرانه وتجد في وسط الريش عمودا غليظا يابسا مثبتا قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها ما يقابلها من الهواء وهي مع صلابتها مجوفة ليخفف عليه طيرانه.

آنظر إلى الطائر الطويل الساقين والحكمة في طولهما أنه يرعى أكثر رعيه في صحصاح كأنه فوقه مرقب يتأمل ما يدب في الماء فإذا رأى شيئا من حاجته خطا خطوا رفيقا حتى يتناوله فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو إلى الصيد يصل بطنه إلى الماء فيهزه فيذعر منه الصيد فيبعد عنه. انظر إلى العصافير وغيرها فإنها تطلب رزقها طول نهارها فلا هي تجده مجموعا في محله وهو أمر جار على سنة اللّه في خلقه فإن صلاحهم في السعي في طلب الرزق فإن الطير لو وجده ميسرا أكب عليه ولا يقلع عنه حتى يمتلئ فيثقل عن الطيران ولا يستطيع رده أعني قذفه من بطنه مثل طير الماء الكبير فإنه يأكل السمك فإذا امتلأ منه وازعجه مزعج تقيأه حتى يخف للطيران وكذلك الناس أيضا لو وجدوه بلا سعي لتفرغوا افراغا يوقعهم في غاية الفساد.

آنظر إلى هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج الا ليلا مثل البـوم والهـام والخفاش فان عيشها يتيسر في الجو كالبعوض والفراش وشبهه فانها منبثة في هذا الجو فجعل عيشه في موضع أقرب إليه من الأرض ولعل نوره لا يعينه أن يلتقط من الأرض بدليل أنه لا يظهر في نور الشمس الا مختفيا فالمهم أن يعيش في الجو من الفراش وغيره آنظر إلى الخفاش لما خلق بغير ريش كيف خلق له ما يقوم مقامه وجعل له فم وأسنان وكل ما في البهائم الأرضية من الولادة وغيرها وقدرة على الطيران فاظهر سبحانه في ان قدرته على الطيران لا تقتصر على ما خلق له الريش ولا تنحصر في نوع واحد لأنه خلق هذا النوع وخلق من السمك جنسا يطير على وجه البحر مسافة طويلة ثم ينزل الماء فسبحان القادر العليم آنظر إلى الذكر والأنثى من الحمام كيف يتعاونان على الحضانة فإذا احتاج أحدهما إلى قوته ناب الآخـر إلى آخـر وقت الحضانة ثم الهمهما على الحضانة فلا يطيلان الغيبة على البيض إذا خرجا لنيل القوت حتى انهما يجتمـع في أجـوافهـما البراز للحرص على الرقاد فإذا اضطره خروج البراز أخرجه دفعة واحدة.

ثم انـظر إلى حرص الـذكـر حين تحمل الأنثى بالبيض ويقرب أوان وضعها كيف يطردها وينقرها ولا يدعها تستقر خارجا عن الوكر خشية أن تضع البيض في غير الموضع المهيأ لوضعـه. آنظر كيف يزق أفراخه ويعطف عليها ما دامت

محتاجة إلى الزق حتى إذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت عن أبويها صارت إذا تعرضت له لنيل ما اعتادت ضربها وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها

ثم انظر ما خلق اللّه تعالى في الكواسر من شدة الطيران حتى لا يسبق له من يطلبه ومن قوة المخلب وحدته في المنقار والأظفار فكأنّ مخلبها مدية للقطع وكأنّ مخلب أرجلها خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى تحصل ما تحتاجه من قوتها.

آنظر إلى طير الماء لما جعل قوته في الماء كيف جعل فيه قوة السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه فجعل سبحانه وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به في تحصيل قوته.

باب في حكمة خلق البهائم

قال اللّه سبحانه وتعالى :

(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) *

اعلم وفقك اللّه وإيانا أن اللّه خلق البهائم لمنافع العباد امتنانا عليهم كما نبهت على ذلك هذه الآية فخلقها اللّه بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه وعصب شديد وعروق شداد وضم بعضها إلى بعض ولم يجعلها لينة رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة وجعل فوق ذلك جلدا اشتمل على أبدانها كلها لتضبطها وتتقنها لأنها أريد منها القوة للعمل والحمل ثم خلقها سبحانه سميعة بصيرة ليبلغ الانسان حاجته منها لأنها لو كانت عمياء صماء لم ينتفع بها الانسان ولا وصل بها إلى شيء من مآربه ثم منعت العقل والذهن حكمة من اللّه لتذل للانسان فلا تمتنع عليه إذا كدها عند حاجته إلى اكدادها في الطحن وحمل الأثقال عليها إلى غير ذلك.

وقد علم اللّه أن بالناس حاجة إلى أعمالها وهم لا يطيقون اعمالها ولا يقدرون عليها ولو كلف العباد القيام بأعمالها لاجهدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا يبقى فيهم فضلة

---

* النحل 8

لعمـل شيء من الصنـاعـات والمهن التي يخصـون بعملهـا وخلقتهـم قابلة لها ولا غنى لهم عنهـا وتحصيل الفضائل من العلوم والآداب ولـو كان ذلـك مع اتعـابه لابدانهم يضيق عليهم معايشهم فكان قضاؤه على هذا تسخيرها لهم من النعم العظيمة آنظر في خلق أصناف من الحيوانات وتهيئتها لما فيه صلاح كل صنف منها فبنو آدم لما قدروا أن يكونوا ذوي علاج للصناعات واكتساب للعلوم وسائر الفضائل ولا غنى لهم عن البنـاء والحياكـة والنجـارة وغـير وذلك خلقت لهم العقول والأذهـان والفكـر وخلقت لهم الأكف ذوات والأصـابـع ليتمكنوا من القبض على الأشياء ومحاولات الصناعات.

وآكـلات اللحم لما قدر أن يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وانياب. وآكلات النبـات لما قدر أن تكـون غير ذات صنعة ولا صيد خلقت لبعضهـا اظلاف كفتها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى ولبعضهـا حوافر مستديرة ذات قعر كأخمص القدمين لتنطبق على الأرض وتتهيأ للحمل والركوب.

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوانات كيف خلقت ذوات أسنـان حداد وأتـراس شداد وأفـواه واسعـة وأعينت بـسلاح وأدوات تنال بذلك ما تطلبه فإن ذلك كله صالـح للصيد فلو كانت البهائم التي عيشها النبات ذوات

مخالب وأنياب كانت قد أعـطيت ما لا تحتـاج إليه لأنها لا تصطاد ولا تأكل اللحم ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه من السلاح الذي به تصطاد.

فانظر كيف أعطى سبحانه كل واحد من أصناف الحيوان ما يشاكله وما فيه صلاحه وحياته آنظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف يجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى تربية وحمـل كما يحتاج الآدميون إذ لم يجعل في أمهاتها ما جعل في أمهات البشر من العقل والعلم والرفق في أحوال التربية والقوة عليها بالفكر والأكف والأصابع المهيأة لذلك ولغيره فلذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج تدرج وتلقط عقيب خروجها من البيضـة ومـا كان منها ضعيفا لا نهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعـل في الأمهات عطف عليها (78) فصارت توعى الطعام في حواصلها ثم تمجه في أفواه فراخها ولا تزال كذلك حتى تنهض وتستقل فكل أعطي من اللطف والحكمة بقسط فسبحان المدبر الحكيم. انظر إلى قوائم الحيوان كيف ينتقل

78) يتكون النداء الصوتي عند الدجاجة من مقطع أو مقطعين تنادى بها فراخهـا عنـد اكتشافها مصدر الغذاء. فإذا رأت الدجاجة صقرا يقترب من حظيرتها فإنها تطلق صرخة ذات نغمه خاصة تسمعها الفراخ الصغيرة فتهرع إل أقرب ملجأ وتلوذ به.

أزواجـا لتتهيأ للمشي فلو كانت أفرادا لم تصلح لذلك لأن الماشي منها ينقل منها بعضه ويعينه على مشيه اعتماده على ما لم ينقله منهـا فذو القـائمتـين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه يعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسرير ولو كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسـد مشيه فجعـل ينقـل اليمنى من مقـدمه على اليسرى من مؤخره ويعتمد على الأخريين من خلاف أيضا فيثبت على الأرض ولا يسقط إذا مشى لسرعة التحاقهما فيما بين المشي والاعتماد أمـا ترى الحمار يذل للحمولة والطحن والفـرس مبرأ منها والبعير لا تطيقه عدة رجال لو استعصى وينقاد لصبي صأير.

والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحـرثه والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة في الحرب وقاية لراكبها والقطيع من الغنم يرعاها صبي واحد فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها وربما أعجزت طالبها وكذلك جميع الحيوان المسخر للانسان ومـا ذلك إلا لأنها عدمت العقل والتروي فكان ذلك سببا لتذليلها فلم تلتو على أحد من الناس وان كدها في كثير من الأحوال وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية لتواردت على النـاس وأنكتهم نكـاية شديدة عظيمـة ولعسر زجـرها

ودفعها ولا سيما إذا اشتدت حاجتها في طلب قوتها ويشتد خللها ألا ترى كيف إذا أحجمت عن الخلق وصارت في أماكنها خائفة تهاب مساكن الناس وتحجم عنها حتى صارت لا تظهر ولا تنبعث في طلب قوتها في غالب أحوالها إلا ليلا فجعلها مع شدة قوتها وعظم غذائها كالخائفة من الإنس بل هي ممنوعة عنهم ولولا ذلك لساورتهم في منازلهم وضيقت عليهم في مساكنهم.

ألا ترى الكلب وهو من بعض السباع كيف سخر في حراسة منزل صاحبه حتى صار يبذل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل إلى صاحبه ما يؤذيه ثم أنه أعان صاحبه بقوة صوته حتى يتنبه من نومه فيدفع عن نفسه ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش والهوان والجفاء فطبع على هذه الخلال لمنفعة الانسان في الحراسة والاصطياد ولما جعله الباري سبحانه حارسا أمده بسلاح وهي الأنياب والأظفار واللهث والقوى ليذعر به السارق والمريب وليجتنب المواضع التي تحميها ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحا مثبتا على قوائم أربع لتمهيد الركوب والحمولة.

وجعل فرجها بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها إذ لو كان أسفل باطنها كالآدمي لم يتمكن الفحل منها. ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحا كما يأتي الرجل المرأة فتأمل هذه الحكمة والتدبير ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها فإذا

كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من اتيانها فلما لم يخلق في الموضع المخلوق في الأنعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ليقوم الأمر الذي به دوام التناسل وذلك من عظيم العبر ثم انظر كيف كسيت أجساد البهائم الشعر والوبر ليقيها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقيها ذلك من الحفا وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره.

ولما كانت البهائم لا اذهان لها ولا كف ولا أصابع تتهيأ للأعمال كفيت مؤونة ما يضربها بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها ما بقيت فلا تحتاج إلى استبدالها ولا تجديد بغيرها بخلاف الآدمي فإنه ذوفهم وتدبير وأعضاء مهيأة لأعمال ما يقترحه وله في اشغاله بذلك صلاح وفيه حكمة فإنه خلق على قابلية لفعل الخير والشر وهو إلى فعل الشر أميل منه إلى فعل الخير فجعلت الأسباب التي يحصل بها ما هو محتاج إليه ليشتغل بها عما فيه فساده وهلاك دينه فإنه لو أعطى الكفاية في كل أحواله أهلكه الأشر والبطر وكان من أعظم الحيوانات فسادا في الأرض ولتصرف بعقله الذي هو مخلوق لينال به السعادة إلى ما فيه شقاوته.

ثم ان الآدمي مكرم يتخيّر من ضروب الملابس ما شاء فيلبس منها ما شاء ويتزين بها ويتجمل ويتلذذ منها بما يشاء ويكمل

بها زينته وجماله وبهاءه في عين من يصحبه ويحب قربه ويطيب بذلـك رائحتـه وينعش نفسـه وهـذا من باب النعمة عليه والكرامة له بخلاف البهائم فإنها غنية عن هذا كله. آنظر فيها ألهم الله البهائم والوحوش في البراري فإنها تواري أنفسها كما يواري الناس موتاهم فما أحس منها بالموت توارى بنفسه إلى موضع يحتجب فيه حتى يموت وإلا فأين جثث السباع والـوحوش وغيرها فإنك لو طلبت منها شيئا لم تجده وليست قليلة فيخفى أمرها لقلتها بل لو قال قائل أنها أكثر من الإنس لم يبعـد لأن الصحاري قد امتلأت من سباع وضباع وبقر وحمـير ووعـول وإبـل وخنـزير وذئـاب وضروب من الهـوام والحشرات وأصناف من الطير. وغير ذلك مما لا يحصى عدده وهذه الأصناف في كل يوم يخلق منها ويموت منها ولا يرى لها رمم موجودة والذي أجرى الله به عادته أن تكون في أماكنها فإذا أحست بالموت أتت إلى مواضع خفية فتموت فيها فانظر هذا الأمر الذي ألهمه هذه الأصناف في دفن جثثها بما فطرت عليه وشخص لبني آدم بالفكر والتروي.

تأمل الدواب كيف خلقت أعينها شاخصة أمامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطا ولا تتردى في حفرة وإذا قربت من ذلـك نفرت منه وأبعدت نفسها عنه وهي جاهلة بعاقبة ما يلحقهـا منـه أليس الـذي جبلهـا على ذلـك أراد صلاحها

وسلامتها لينتفع بها ثم انظر إلى فمها مشقوقا إلى أسفل الخطم تتمكن من نيل العلف والرعي ولو جعل كفم الانسان لم تستطع أن تتناول شيئا من الأرض وأعينت بالجحفلة لتقصم بها ما قرب منها فألهمت قصم ما فيه صلاحها وترك ما لا غذاء لها فيه ولا صلاح انظر ما كان من البهائم كيف يمزز الماء في شربه مزا وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه يدفع بها ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش ويحركها تحريكا يدفع به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه فتقوم لها هذه الشعرات مقام فم الانسان.

ثم انظر إلى ذنب البهيمة وحكمته وكيف خلق كأنه غطاء في طرفه شعر فمن منافعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها ومنها أن ما بين دبرها وطريق بطنها أبدا يكون فيه وضر يجتمع بسببه الذباب والبعوض ويجتمع أيضا على مؤخرها فأعينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها فصار كأنه مذبة في يدها تذب بها وتطرد عنها ما يضر بها ثم أنها تعطف برأسها فتطرد به ما في مقدمها من الذباب أيضا ثم أن الدابة أيضا أعينت بحركة مختصة وذلك أن الذباب إذا وقع عليها في مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكا تطرد به الذباب وغيره منها وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين ومن الحكمة فيه أيضا أن الدابة تستريح بتحريكه يمنة ويسرة لأنها لما كان قيامها على أربع

اشتغلت يداها أيضا بالحمل لبدنها والتصرف فجعل لها في تحريك ذنبها منفعة وراحة وأعينت بسرعة حركته لئلا يطول ألمها بما يعرض لها ومن الحكمة فيه أن البهيمة إذا وقعت في بركة أو مهواة أو وحلت في طين أو غيره فلا تجد شيئا أهون على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها ومن ذلك خيف على حملها أن ينقلب على رقبتها عند هبوطها من مكان مصبوب أو ليسبقها رأسها فتنكب على وجهها فيكون مسكها بذنبها في هذه المواضع يدلها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها إلى غير ذلك من مصالح لا يعلمها إلا الحكيم العليم.

انظر إلى مشفر الفيل وما فيه من الحكمة والتدبير فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف وايصاله إلى فمه فلولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئا في الأرض إذ لم تجعل له عنق يمدها كسائر الأنعام فلما عدم العنق في هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم فيتناول به ما يحتاجه فسبحان اللطيف الخبير، انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء إلى فمه ومنخرا يتنفس منه وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره أو يناول من هو راكب عليه انظر إلى خلق الزرافة لما كان منشأها في رياض شاهقة خلق لها عنقا طويلا لتدرك قوتها من تلك الأشجار تأمل في خلق الثعلب فإنه إذا حفر له بيتا في الأرض جعل له فوهتين احداهما يتسرب منها والأخرى يهرب

منها ان طلب ويرقق مواضع في الأرض في بيته فإن طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه في المواضع التي رفقها فخرج من غير المنافذ وهي المواضع التي نحتها.

انظر ما خلق اللّه تبارك وتعالى في جبلته لصيانة نفسه، وجملة القـول في الحيوان أن اللّه تبـارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق فما كان منه ينتفع الناس بأكله خلق فيه الانقياد والتذلل وجعل قوته النبات وما جعل منه للحمل جعله هادئ الطبع قليل الغضب منقادا منفعلا على صور يتهيأ منه الحمل وما كان منه ذا غضب وشر إلا أنه قابل للتنظيم إذا نظم خلق فيه هذا القبول ليستعين العباد بصيده وحراسته وأعين بآلات قد تقدم ذكرها ومن جملة ذلك الفيل فإنه ذو فهم مخصوص به وهو قابل للتأنس والتعلم فيستعان به في الحمل والحروب ومنها ما له غضب وشر إلا أنه متأنس بالانسان لمنفعته كالهرة ومن الطير ما للناس به انتفاع لما فيه من الألفة والتأنيس فمن ذلك الحـمام يألف موضعه فتنقل بسببه الأخبار بسرعة إذا عدت حاجة إلى ذلك. وجعله اللّه سبحانه كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به ومن ذلك البازي فإن طباعه تنتقل إلى التأنس وإن كان في طبعه مباينا إلا أنه لما علم اللّه أنه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم حتى خرج عن عادته وبقي يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد وما خفي من الحكم في خلق اللّه تعالى أكثر مما علم.

باب في حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت

ودود القز والذباب وغير ذلك

قال اللّه سبحانه وتعالى :

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) (79)

انـظر إلى النمل وما ألهمت له في احشادها في جمع قوتها وتعـاونهم على ذلـك واعـداده لوقت عجـزهـا عن الخـروج والتصرف بسبب حر أو برد والهمت في تقلب ذلك من الحزم ما لم يكن عند من يعرف العواقب حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ما يحمله أو جهد به أعانه آخر فيه فصارت متعاونة (80) على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذي لا يتم

---

79) الأنعام 38

80) يربـو النمـل على ستمائة نوع . والتجارب على النمل أثبتت ان بالنمل غدة تفرز مادة قلوية ذات رائحة مميزة تخطها على الأرضـس ابرة في أسفل بطن النملة فإذا ما حاول أحد مسح الطريق الذي خطته هذه الابرة يعم الاضطراب جموع النمل . ويبدأ بالبحث عن أفراد عائلته بطريقة الملامسة بقرون الاستشعار . (مجلة الأمة العدد 35 عجائب المخلوقات)

إلا بالتعاون ثم أنها ألهمت حفر بيوت في الأرض تبتدئ في ذلك باخراج ترابها وتقصد إلى الحب الذي منه قوتها فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض فمن خلق هذا في جبلتها إلا الـرحمن الـرحيم ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجته فنشرتـه حتى يجف ثم انها لا تتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض خوفا من السيل أن يغرقها ثم انظر إلى النحل وما ألهمت إليه من العجائب (81) والحكم فإن البـاري سبحانه جعل لها رئيسا تتبعه وتهتدي به فيما تناله من أقواتها فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الآخر وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق لأنهما إذا كانا أميرين وسلك كل واحد منهما فجا افترق النحل خلفهما ثم أنها الهمت أن ترعى رطوبات من أعلى الأزهار فتستحيل في أجوافها عسلا فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء

---

81) تقوم الشغالة في عالم النحل بالبحث عن الغذاء. فإذا وجدته تعود إلى بقية النحـلات في الخلية وهي تهتز - لا اراديا - بعدة رقصات أمام النحلات التي تستطيع فهم معنى كل رقصة. فهناك نوعان من الرقص تؤديهـا النحلة الشغـالة هي : الرقصة الدائرية والرقصة الاهتزازية. النـوع الأول تؤديه عنـدما تكون المسافة بين الخلية ومصدر الغذاء لا تتعدى خمسين مترا. والرقصة الثانية إذا كانت المسافة تصل إلى تسعين مترا. وإذا زادت المسافة عن تسعين مترا تكررت الرقصة خمس مرات كل 15 ثانية. (الأمة العدد 35 عجائب المخلوقات)

للناس كما أخبر سبحانه وتعالى وفيه غذاء وملاذ للعباد وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بنى آدم فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس.

ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع بارجلها لتوعى فيه العسل وتحفظه فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح فانظر في هذه الذبابة هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانته في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها ثم انظر لخروجها نهارا لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعدا عن مواضع العسل، وفيها غير هذا مما انفرد اللّه بعلمه.

انظر إلى العنكبوت وما خلق فيها من الحكمة فان اللّه خلق في جسدها رطوبة (82) تنسج منها بيتا لتسكنه وشركا

82) العناكب وجميع المفصليات تتمكن من مقاومة الجفاف بواسطة جلدها المضاد للماء فإن في جسدها رطوبة ذاتية. فجسدها مغطى بطبقة منيعة من الشمع تمنع التبخر. وعلى الرغم من حاجتها للتنفس إلا ان

لصيدهـا فهي مخلوق من جسـدها وجعل اللّه غذاءها من أقـواتها ينصرف إلى تقويم جسدها وإلى خلق تلك الرطوبة المذكورة فتنصبه أبدا مثل الشرك وفي ركن الشرك بيتها وتمكن في بيتها بحيث يغيب شخصها والشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك فإذا أحست أن شيئا من ذلك وقع في شركها خرجت إليه بسرعة وأخذته محتاطة عليه ورجعت إلى بيتها فتقتات بما يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات وان كانت مستغنيـة في ذلك الوقت شكلته وتركته إلى وقت حاجتهـا فانـظر ما جعـل اللّه فيهـا من الأسباب لحصول قوتها فبلغت في ذلك ما يبلغه الانسان بالفكر والحيلة كل ذلك لصلاحها ولنيل قوتها ولتعلم أن اللّه هو المدبر لهذا.

ثم انظر من العجائب دود القز وما خلق فيه من الأشياء التي يتحير منها ويذكر اللّه عند رؤيتها فإن هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الانسان ومنافعه فإن هذا الحيوان الذي يخلق من جسمه الحرير وذلك أن صورة البزر تحضن حتى إذا حمى عاد دودا كالذر فيوضع هذا الدود على ورق التوت فيتغذى منه

= فتحات جهازها التنفسي تبقى مغلقة بعضلات خاصة ولا تنفتح إلا عندما يتراكم ثاني اكسيد الكربون في الجسم فتفتح للسماح له بالخروج وادخال الأوكسجين بدلا منه. كما انها لا تستخدم الماء في التبول لذلك فإن بولها عبارة عن بلورات جافة. وبهذا فهي توفر قدرا من الماء داخل جسمها.

فلا يزال يرعى منه حتى يحفر جسمه فينبعث إلى غزل جوز الحرير فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه وتعود جوزة حرير ويصير هو جسما ميتا لا حياة فيه.

ثم انظر فان الباري سبحانه لما أراد حفظ هذا الجنس ببقاء نسله عندما ينتهي من غزل الحرير ويبقى ذلك الجسم يقلبه اللّه إلى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل فيجمع على بساط أو غيره وهو في رأي العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الأنثى فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى ويقيم على ظهرها فتحبل لوقتها وتلد لوقتها مثل ذلك البزر الذي حضن أولا ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع إذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر.

فانظر من ألهمها الرعي من ذلك الورق حتى ترتبت منه ومن ألهمها إلى غزل أجسادها حريرا حتى يعنى بها غزلته ومن ربى لها أجنحة وقلب صورتها حتى صارت على هيئة يمكن فيها اجتماع الذكر والأنثى لتناسلها ولو بقيت على صورتها الأولى لم يأت منها تناسل ولا هذا الاجتماع ثم انظر ما يسره الباري سبحانه من عمل ما غزلته هذه الدودة على من يعمله من بني آدم حتى يكون منه أموال كثيرة وملابس عظيمة وزينة وانظر هذا التسخير العجيب في هذا الحيوان اللطيف وما أظهر فيه سبحانه من بديع الصنع وعجيب الفعل وعظيم الاعتبار وما

جعـل فيه من الـبرهـان والآيات على بعث الأموات واعادة العظام الرفات سبحانه لا إله إلا هو العلي العظيم.

ثم انـظر الذبابة وما أعينت به في نيل قوتها فإنها خلقت بأجنحـة تسرع بها إل موضـع تنال فيه قوتها وتهرب بها عما يهلكها ويضربها وخلق لها ستة أرجل تعتمد على اربع وتفضل اثنتين فإن أصابها عثار مسحته بالرجلين اللذين تليهما وذلك لرقة أجنحتها ولأن عينها لم يخلق لها أهداب لأنهما بارزتان عن رأسها وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببني آدم ويقـع عليهم دائما وينغص عليهم عيشهم ليعرفهم الباري سبحانه هـوان الدنيـــا حتى تصغر عندهم ويهون أمرفراقها وهـو وجـه من وجوه الحكمة عليهم تأمل كثيرا من الحيوان الصغير عند تلمسه يعود كأنه جماد لا حراك به ويبقى على ذلك ساعة ثم يتحرك ويمشي وهل ذلك إلا لأن لا يصطاد إذا دلت هيئته علـى عدم حياته فإذا كان شبيها بالجماد ترك كما تترك سائر الحجارة.

تأمل العقاب عندما يصطاد السلحفاة يجدها كأنها حجر ولا يجد فيها موضعا لأكله فيصعد بها في مخالبه حتى إذا بعد من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وأرسلها فتهشمها الوقعة فيسقط عليها فيأكلها فآنظر كيف ألهم الطريق في نيل قوته من غير عقل ولا روية آنظر إلى الغراب لما كان مكروها

خلق في طبعه الحذر لصيانة نفسه حتى كان يعلم الغيب فيمن يقصده والهم الاحتيال في اخفاء عشه لصون فراخه وقل احتفاله بالأنثى خشية أن تشغله عن شدة حذره ولذلك قل أن يرى مجتمعا مع أنثى فهذا أبدا دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة وتراه مع البهائم على خلاف ذلك فيقف على ظهورها ويأكل من دم البعير ومن أرواث الدواب وقت تبرزها وإذا وجد شيئا من قوته وأكل منه وشبع دفن باقيه حتى يعاوده وقتا آخر فمن خلق هذا في طبعه ودبره بهذا التدبير العجيب إلا اللّه لأنه لا عقل له ولا روية، آنظر إلى الحدأة لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليها وحفظت في أمر قوتها بقوة بصرها فإنها ترى ما تقتات به في الأرض مع علوها في الجو فتنحط نحوه بسرعة والهمت معرفة من هو مقبل ومن هو مدبر فتخطف ما تحفظه من الناس من ورائهم ولا تخطف مما يستقبلها لئلا يمنعها المستقبل بيديه واعينت لما كان غذاؤها من هذه الوجوه بأن جعلت لها مخالب كأنهم السنانير لا يكاد يسقط منها ما ترفعه فسبحان المدبر الحكيم.

انظر إلى الحيوان المسمى الحرباء وما فيه من التدبير فإنه لما خلق بطيئا في نهضته وكان لا بد له من قوته فخلق على صورة عجيبة فخلقت عيناه تدور لكل جهة من الجهات حتى تدرك صيده من غير حركة في جسده ولا قصد إليه ويبقى جامدا كأنه ليس من الحيوان ثم أعطي مع السكون أن يتشكل في لون

الشجرة التي يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها ثم إذا قرب منه ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه فيخطف ذلك بسرعة خفوق البرق ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة وجعل اللّه لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أو نحوه فقد سخر له ما يصطاد به على هذه المسافة وإذا رأى ما يريعه ويخيفه تشكل على هيئة وشكل ينفر منه من يصطاده من الحيوان ويكرهه فانظر هذه التي خلقت فيه لأجل قلة نهضته فاعين بها، انظر إلى الحيوان الذي يسمى سبع الذباب وما أعطى من الحيلة والرفق فيما يقتات به فإنك تجده يحس الذباب قد وقع قريبا منه فيركد مليا حتى كأنه ميت أو جماد لا حراك به فإذا أحس ان الذباب قد إطمأن دب دبيبا رقيقا حتى لا ينفره حتى إذا صار قريبا منه بحيث ينال بوثبة وثب عليه فأخذه فإذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية ان يتخلص منه الذباب فلا يزال قابضا عليه حتى يحس ببطلان حركته فيقبل عليه فيتغذى منه بما يلائمه منه فانظر إلى هذه الحيلة أهي من فعله أو هي مخلوقة من أجل رزقه فسبحان الباري الحكيم. انظر إلى الذر والبعوض الذي أوهن اللّه قوتها وأصغر قدرها وضرب بها المثل في كتابه تجد فيها نقصا عما فيه صلاحها من جناح تطير به ورجل تعتمد عليها وبصر تقصد به موضعا تنال فيه قوتها وآلة لهضم غذائها واخراج فضلته وانظر هل يمكن أن يعيش من غير قوت وهل

يمكن أن يكون القوت في غير محل واحد واخراجه فضلته من غير منفذ

تم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم فسواها وقدر أعضاءها واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة فهي بعوضة صغرت في النظر ومع هذا فلو أن أهل السموات والأرض من الملائكة فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق أجمعين ارادوا أن يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه أجزاءها وحسن اعتدال صورتها في أعضائها لما قدروا على ذلك إلا تظاهرا لمنظر العجز منهم على عدم حقيقة الخبر ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن ما بين الجلد واللحم دما وهو الذي هو غذاؤها ولولا معرفتها به لم تقدم على مصه حتى تطعمه وكيف همتها التي قصدت بها أن تطير إلى الموضع الذي الهمها ربها أن فيه غذاءها وكيف خرق سمعها وكيف سمعت حس من يقصدها وكيف عرفت أن نجاتها في الفرار إذا ولت هاربة ممن قصدها فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون ولو جزّؤوها ما ازدادوا في أمرها إلا عمى وبعدا عن المعرفة فهذه الحكمة والقدرة في بعوضة فما ظنك بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

باب في حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم

قال اللّه تعالى :

(وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا) *

انظر واعتبر بما خلق اللّه تعالى في البحار والأنهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال وما فيه من الآيات البينات فإنه تعالى لما جعل مسكنه في الماء لم يخلق له قوائم ولم يخلق فيه رئة لأنه لا يتنفس وهو منغمس في لجة الماء وخلقت له مكان القوائم أجنحة شداد (83) يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء وكسا جلده متداخلة صلبة تخالف لحمه متراصة كأنها درع لتقيه ما يعمد إليه وما يؤذيه وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة وهي القشر المتداخل المخلوق على ظاهره خلق له جلدا غليظا متقنا يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره وخلق له بصرا وسمعا وشما ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه .

---

* النحل 14

83) يقصد الزعانف

وانظر كيف أعطى في قعر البحر ما يناسبه في نيل القوت والهرب مما يضره ولما علم اللّه سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثره وجعل أكثر أصنافه يحمل ولم يجعل الحمل منه مخصوصا بالأنثى دون الذكر كحيوان البر بل جعل الذكر والأنثى جنسا واحدا (84) يخلق في بطونها مرة واحدة في وقت معلوم ذريعة مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر فيخلق من جوف واحدة عددا لا يحصى وذلك من كل بزرة حوتا من الجنس ومن جنس آخر يخلق في الأنهار وغيرها بغير توالد فيخلق منها أعدادا لا تحصر دفعة واحدة ومنه صنف يتولد منها بيض تفقص البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحدة من الجنس ولما علم اللّه سبحانه وتعالى أن السمك في البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بزره ألقى الروح في بزر جميعه عندما يولد فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الأعضاء عند القاء الروح فيه فيستقل ولا يفتقر إلى أحد في كمال خلقه فانظر هذه الحكمة واللطف حيث لم يمكن حضانته في البحر ولا تربيته ولا معونته البتة جملة مستقلا بنفسه مستعينا عن ذلك كله ثم ان اللّه سبحانه كثره لأن منه قوت جنسه وقوتا لبني آدم والطير فلذلك كان كثيرا ثم انظر سرعة حركته وان لم تكن له آلة كغيره من الحيوان وانظر إلى حركة ذنبة وانقسامه وكيف يعتدل بذلك في سيره كما تعتدل

84) ليس كما يقول المؤلف بل هناك ذكر وأنثى والأنثى من السمك تضع بيضها ثم يمر الذكر على البيض فيلقحه بالسائل المنوي.

السفينة برجلها في سيرها وخلقت ارياشه ألواحا من جانبيه ليعتدل بها أيضا في سيره فهو بمنزلة المركب.

وانظر إلى عظامه كيف خلقت مثل العمد يبنى عليها ففي كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو فهو كانشاء المركب يمتد العظم الجافي الذي هو قوته ويخرج من اضلاع إلى مراق البطن والظهر وعظام الرأس يحتاج إليه من الأمر وبه قوامه وانظر إلى ما كان منه كاسرا كيف أعين على نيل قوته بصلابة اللحم وقوة النهضة وكثرة الأسنان حتى أنه لكثرة أسنانه تكون العضة الواحدة تجزيه عن المضغ.

انظر إلى ما خلق اللّه في البحر ضعيفا قليل الحركة مثل أصناف الصدف والحلزوني كيف حفظ بأن خلق عليه ذلك الحصن الذي هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه وجعله له بيتا وسكنا وجعل ما يلي جسده ناعما انعم ما يكون وربما ضربت بعض أصناف الحلزون حتى لا يكون فيه مطمع البتة وأصناف منه خلقت في محائر مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها ولا يضيق مسلكها فجعل اللّه لها من الجبال والحجارة مغطا وجعل لها أسبابا تلتصق بها في الجبل فلا يستطاع إخراجها إلا بغاية الجهد وجعل لها قوتا من رطوبات الجبل تتأتّى حياتها بذلك وأما الحلزون (85) الذي بيته كأنه كوكب

85) لعله يقصد القواقع والمحار

فإنه يخرج رأسه يرعى فإذا أحس بما يؤذيه أدخل رأسه في بيته وختم عليه بطابع صلب يقرب من صلابة بيته فيغيب أثره بالجملة.

فانظر هذا اللطف وإن الله لا يهمل شيئا واعلم ان الله حافظ لما في البحار وما في الأكام والجبال فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وانظر إلى أنواع السمك يرعى قرب البر الصغير منها والجافي في الأعماق وقد خلق اللّه في جوفه صبغا كأنه حبر وهو يخلق له فيه من فضله غذاءه كما يخلق اللبن في الضرع فإذا أحس بما يؤذيه اخرج من جوفه ما يعكر موضعه ثم يذهب في الماء الذي تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغير الماء الذي تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغير الماء فعل الله ذلك له وقاية لنفسه وفعل فيه مصالح أخر لا يعلمها إلا خالقها.

انظر إلى نوع آخر من السمك أعين باجنحة مثل أجنحة الخفاش ينتقل بها عند وقوع الأنواء من موضع إلى موضع في الهواء من وجه الماء يظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر.
انظر إلى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف وكثيرا ما يكون في الأنهار وجعل اللّه فيه خاصية تصونه إذا اقتربت منه تأخذه وفيه الروح تخدر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب فلو ملئت الكتب بعجائب حكم اللّه في خلق واحد لامتلأت الكتب وعجز البشر عن استكمالها وما هو المذكور في كل نوع تنبيه إلى أمر عظيم.

باب في حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة اللّه تعالى

قال اللّه تعالى :

(أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع اللّه بل هم قوم يعدلون) (86)

انظر وفقك اللّه وسددك إلى ما على وجه الأرض من النبات وما في نظره من النعيم في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر الأرض .

ثم انظر إلى ما جعل الباري فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تحصى وخلق فيه الحب والنوى مخلوقا لحفظ أنواع النبات وجعل الثمار للغذاء والتفكه والأتبان (87) منها للعلف والرعي والحطب للوقود والأخشاب للعمارة وانشاء السفن ولغير ذلك من الأعمال التي يطول تعدادها والورق والأزهار والأصول والعروق والفروع

---

86) النمل 60

87) ضرب الله بذلك مثلا لعودة الحياة بعد الموت

والصموغ لضروب المصالح لا تحصى أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها ما كان يحصل من الخلل في عدم الأخشاب والحطاب والاتبان وسائر المنافع وان وجد الغذاء بالثمرات والتفكه بها.

ثم انظر ما جعل اللّه فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل والحكمة في زيادتها وبركتها حصول الاقتيات وما فضل ادخر للأمور المهمة والزراعات وذلك في المثال كملك أراد عمارة بلدة فاعطى أهلها من البذور ما يبذرونه وفضله يتقوتون بها إذا أدرك زرعهم.

فهذه هي الحكمة التي عم اللّه بها البلاد وأصلح بها العباد وكذلك الشجر والنخل تزكو وتتضاعف ثمراتها حتى تكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ليكون فيه ما يأكله العباد ويصرفونه في مآربهم ويفضل ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلف.

تأمل في هذه الحبوب فإنها تخرج في أوعية تشبه الخرائط لتصونها وتحفظها إلى أن تشتد وتستحكم كما تخلق البشيمة على الجنين فأما البزر وما أشبهه من الحبوب فإنه يخرج من قشور

صلبه على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير فانظر كيف حصنت الحيوانات بهذه الحصون وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيب بها وان كان يناله منها قوته إلا أن حاجة الآدمي أشد وأولى. تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات توصل إليها غذاءها جعلت أصولها مركوزة (88) في الأرض تجذب الماء من الأرض فتغذى بها أصولها وما علا من الأغصان والأوراق والثمار فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما ترضع أصناف الحيوان من أمهاتها ألم تر إلى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالأطناب من كل جانب ليثبت منصبته فلا يسقط ولا يميل فهكذا أمر النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب وتمسكه وتقيمه ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية لا سيما في الرياح العاصفة فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة اللّه في مصنوعاته.

---

88) ثبت بالتجربة العملية اننا لو وضعنا نبتة صغيرة في وضع معكوس (الجذر إلى أعلى والساق إلى أسفل) لشاهدنا ان الجذور تنحني نحو الأرض بينما تنحني الساق إلى أعلى. (الأمة مايو 1983)

وتأمل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا عجيبا لو كان مما يصنع بأيدي البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا في مدة طويلة وكان يحتاج فيه إلى آلات وطول علاج فانظر كيف يخرج منه في المدّة القليلة ما يملأ السهل والجبال وبقاع الأرض بغير آلة ولا حركة إلا قدرة الباري وإرادته وحكمه. ثم انظر تلك العروق كيف تتخلل الورق بأسره لتسقيه وتوصل إليه المادة وهي بمنزلة العروق المبثوثة في بدن الانسان لتوصل الغذاء إلى كل عضو منه وأما ما غلظ من العروق فإنها تمسك الورق بصلابتها وقوتها لئلا يتهتك ويتمزق ثم انظر إلى العجم والنوى والعلة فيه فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقامه إذا عدم ما يغرس أو عاقه سبب فصار ذلك الشيء النفيس الذي يخزن في مواضع شتى لعظم الحاجة إليه فإن حدث على الذي في بعض المواضع حادث وجد منه في موضع آخر ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها ولولاه لسرحت وسرح الفساد إليها قبل إدراكها وفي بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل في مصالح.

ثم انظر إلى ما خلق اللّه تعالى فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة والهيئة التي تخرج عليها وما في ذلك من

الطعم واللذة والاستمتاع للعباد. ثم تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب كالمودع في الماء الذي يخلق منه الحيوان وهو سر لا يعلم حقيقته إلا اللّه سبحانه وما علم من ذلك يطول شرحه.

ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلابة وخلقت في ظاهره قشرة حتى أنه بسبب ذلك أن سقط في تراب أو غيره لا يفسد سريعا وإذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظا فصار قشره الخارج حافظا لما في باطنه بمنزلة شيء نفيس عمل له صندوق يحفظه وعندما يوضع في الأرض ويسقى يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء وكلما ازداد غصنا ازداد عرقا تتقوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فهي كذلك إذ يتم غصنها قوتها فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهوى والانكسار بالنقل أو بغيره ويصعد الماء في جذرها إلى أعالي الشجرة فيقسمه اللّه سبحانه بالقسط وميزان الحق فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المشتبكة في الأوراق لاتصال الغذاء إلى جوانب الورق ما يليق بغذائها وللثمار غذاء صالح لها وللاقماع واللحا والأزهار غذاء صالح لكل من ذلك ما يليق به ويصلحه فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها ورائحتها وألوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها.

ثم انظر كيف جعل اللّه سبحانه خروج الأوراق سابقا

لخروج الثمار لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء فكانت الأوراق (89) ساترة لها وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى للثمرة عنها فيحفظها ذلك من المن والعفن وغير ذلك من الفساد.

ثم انظر كيف رتب الباري سبحانه الأشجار والثمار والأزهار وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح فاشكالها ما بين طويل وقصير وجليل وحقير وألوانها ما بين أحمر وأبيض وأصفر وأخضر ثم كل لون منها مختلف إلى شديد وصاف ومتوسط وطعومها ما بين حلو وحامض ومر وروائحها إلى عطرات لذيدات مختلفات وقد أوضح الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدر ويكشف للمتأمل منه كل مستور فانظر ما أودع الباري سبحانه فيها من السر عند النظر إليها فإنها تجلى عن القلوب درنها عند مشاهدتها وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها وأودع اللّه سبحانه فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير فمنها ما تقوى به القلوب ومنها أغذية تحفظ الحياة وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها وخلق فيها بزورا لحفظ نوعها تزرع عند جفافه وانفصال وقت نضارتها انظر وتأمل ما في قوله عز وجل :

---

89) للأوراق دور في نقل وتكوين العصارة لتغذية النبات

﴿ وشجرة من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾*

فاخرج سبحانه فيها بين الحجر والماء زيتا صافيا لذيذا نافعا كما أخرج اللّبن من بين فرث ودم ومن أخرج من النحل شرابا عسلا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس ولو جمعت هذه الأشياء في مستقر لكانت مثل الأنهار وكل ذلك لمنافع العباد فانظر ما فيه من العبرة لذوي الأفكار ثم انظر إلى الماء الصاعد من العروق الراسخة الحافظة للأعلى من الشجرة وكيف قسم الباري في غذاء النخلة فقسم للجذر ما يصلح لها وللجريد وما فيه من السل ما يصلح لها ويناسب جريدها ويرسل للثمرة ما يليق بها وكذلك الليف الحافظ للأصول مع الثمرة وجعل الثمرة لما كانت ضعيفة في أول أمرها متراصة متراكمة بعضها فوق بعض مجموعة في غلاف متقن يحفظها مما يفسدها ويغيرها حتى إذا قويت صلحت أن تبرز للشمس والهواء فانشق عنها غلافها على التدريج وهو الذي كان حافظا لها فيصير يفترق شيئا بعد شيء على قدر ما تتحمله الثمرة من الهواء والشمس حتى تكمل قوتها فتظهر جميعها حتى ما يضر بها ما يلقاها من حر وبرد ثم تراها في النضج والطيب إلى بلوغ الغاية المقصودة منها. فيلتذ حينئذ بأكلها ويمكن الانتفاع بادخارها وتصرف في المآرب التي هيئت لها اعتبر ذلك في جميع الأشجار فإنك

---

* المؤمنون 20

ترى فيها من أسباب الحفظ ولطائف الصنع (90) ما يعتبر به كل ذي فهم ولب. فمن ذلك خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير فانك ترى فيها شحما مركوما في نواصيها غليظ الأسفل رقيق الاعلا كأمثال التلال في تلوينه أو البناء الذي وسع أسفله للاستقرار ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدي بل تعجز الأيدي عن ذلك التداخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور. وتراه مقسوما أقساما وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة أعجب نسج والطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله ومن حكمة هذه الصنعة أن حبها لو كان حشوها منه صرفا بغير حواجز لم يمد بعضه بعضا في الغذاء فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء ألا ترى أصول الحب كيف هي مركوزة في ذلك الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل إلى الحب غذاءها وإلى كل حبة غذاءها ومن رقها وضعفها لا تكدر على الآكل ولا تعرف بها. ثم انظر ما يصير من الحلاوة في الحب من أصول

90) إن طبيعة الأخشاب وقوتها تختلف تبعا لنوع الغابات التي نمت فيها فالأخشاب التي تخرج من غابات المناطق الحارة تمتاز بمتانتها وتستخدم في صناعة الأثاث. وغابات المناطق الباردة يخرج منها اخشاب الرد والصنوبر وكلها أخشاب غير متينة وتستعمل في صناعة الورق كما يوجد أشجار البلوط ومنها يؤخذ الفلين الذي يصنع منه السدادات وقوارب النجاة.

مرة شديدة المرارة قابضة ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه عن الاضطراب وتحفظه ثم حفظ الجميع وغشاه بقشر صلب شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات.

فان هذا النوع من النبات للعباد به انتفاعات وهو ما بين غذاء ودواء وتدعو الحاجة إليه في غير زمانه الذي يجنى فيه من شجره فحفظ على هذه الصفة لذلك. انظر إلى عود الرمانة الـذي هي متعلقة به كيف خلق مثبتا متقنا حتى تستكمل خلقهـا فلا تسقط قبل بلوغها الغاية المحتاج إليها وهي من الثمـرة المختصـة بالانسان دون غيره من الحيوان. انظر إلى النبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ واليقطين وما أشبه ذلك وما فيه من التدبير فإنه لما كان عود هذا النبات رقيقا ريان ذا احتياج إلى الماء لا ينبت إلا به جعل ما ينبت به منبسطا على وجه الأرض فلو كان منتصبا قائما كغيره من الشجر لما استطاع حمل هذه الثـمار مع طراوة عودهـا ولينها فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غايتها فهي تمتد على وجه الأرض لبلوغ الغاية وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة والسقي يمدها.

وانظر هذه الأصناف كيف لا تخلق إلا في الزمن الصالح لها ولمن تناولها فهي له معونة عند الحاجة إليها ولو أتت في زمان البرد لنفرت النفوس عنها ولا ضرت بأكثر من يأكلها ثم انظر إلى النخـل لما كانت الأنثى منه تحتاج إلى التلقيح خلق فيها

الذكر الذي تحتاج إليه لذلك حتى صار الذكر في النخل كأنه الذكر في الحيوان وذلك ليتم خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا النوع .

ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة فواحد يغور في البدن فيستخرج الفضلات الغليظة وآخر لاخراج المرة السوداء وآخر للبلغم وآخر للصفراء وآخر لتصريف الريح وآخر لروائحه وآخر للمرضى والضعفاء وكل ذلك من الماء فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير

باب ما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب

قال اللّه العظيم :

(تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم أنه كان حليما غفورا) (91)

وقال تعالى :

(تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض) *

وقال تعالى :

(ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) *

اعلم وفقنا اللّه وإياك أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات وبراهين واضحة ودلائل دالات على جلال باريها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته فإنك إذا

---

91) الاسراء 44

* الشورى 5

* الرعد 13

نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه ثم انك إذا نظرت إلى مستقرك وهي الأرض وأجلت فكرك فيها وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات وما أحيط بها من بحار زاخرات وما جرى فيها من الأنهار وما أنبت فيها من أصناف النباتات والأشجار وما بث فيها من الدواب إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب.

ثم إذا نظرت إلى سعتها وبعد أكنافها وعلمت عجز الخلائق عن الاحاطة بجميع جهاتها وأطرافها ثم نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذه الخلق العظيم إلى السماء وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة وما ذكره النظار من أن الشمس في قدرها تزيد على قدر الأرض مائة ونيفا وستين جزء وأن من الكواكب ما يزيد عن الأرض مائة مرة.

ثم انك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حوتها السموات وهي مركوزة فيها ففكر في السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها ثم آنظر كيف ترح الشمس والقمر والنجوم والسماء والجامعة لذلك في حدقة عينيك مع صغرها وبهذا يعرف بعد هذا كله منك وعظم ارتقائه ولأجل البعد ترى هذه النيرات صغيرة في رأى العين ثم انظر إلى عظم

حركتها وانت تحس بها ولا تدركها لبعدها ثم انك لا تشك ان الفلك يسير في لحظة قدر كوكب فيكون سيره في لحظة قدر الأرض مائة مرة وأكثر من ذلك وأنت غافل عن ذلك.

ثم فكر في عظم قدر هذه الأشياء واسمع قسم الرب سبحانه بها في واضع من الكتاب العزيز فقال عز وجل :

(والسماء ذات البروج) * (والسماء والطارق وما ادراك ما الطارق نجم الثاقب) *

وقال :

(فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) (92)

إلى غير ذلك من الآيات ثم ترق بنظرك إلى ما حواه العالم العلوي من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم وما أخبر به جبريل عليه السلام النبي صلى اللّه عليه وسلّم عن اسرافيل عليه السلام بقول جبريل فكيف لو رأيت اسرافيل وأن العرش لعلى كاهله وان رجليه لفي تخوم الأرض السفلى وأعظم من هذا كله قوله عز وجل :

---

* الطارق 1

* البروج 1

92) الواقعة 75

(وسع كرسيه السموات والأرض) *

فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم فارفع نظرك إلى بارئ الكون العظيم واستدل بهذا الخالق العظيم وعلى جلاله وقدرته وعلمه ونفوذ مشيئته واتقان حكمته في بريته.

وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تقله ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته فمن نظر في ملكوت السموات والأرض ونظر في ذلك بعقله ولبه استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لأمره وليس للمتفكرين إلى غير ذلك سبيل وكلما ردد العقل الموفق النظر والتفكر في عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة ويقينا وإذعانا لبارئه وتعظيما ثم الخلق في ذلك متفاوتون فكل مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور العقل ونور الهداية وأعظم شيء موصل إلى هذه الفوائد المشار إليها تلاوة الكتاب العزيز وتفهم ما ورد فيه وتدبر آياته مع ملازمة تقوى اللّه سبحانه فهذا هو باب المعرفة باللّه واليقين بما عند اللّه.

ثم انظر وتأمل ما نشير إليه فإنك علمت على الجملة أن رسول اللّه صلى اللّه وسلم أُسريَ به إلى أن بلغ المنتهى ورأى من آيات ربه الكبرى وأطلع على ملكوت ربه وتحقّق أمر الآخرة

---

* البقرة 255

والأولى ودنا من ربه حتى كان قـاب قوسين أو أدنى فما ظنك بعلم من شرف بهذا المعنى ثم أمر بأن يقـول(**وقل رب زدني علما**) * وعلمك بمعرفته ومن عليك بنور هدايته واستعملنا وإياك بطاعته وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته بمنه وكرمه وجوده أنه ولي ذلك. تم كتاب الحكمة في مخلوقات اللّه عز وجل سبحانه وتعالى والحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه على سيدنا محمد النبيّ الأمى وعلى آله وصنحبه وسلم.

---

* طه 114.

الفهـــرس